

البَابُ الثَّانِي

جذور النهضة الحديثة

مدخل :

اجتازت مصر العصر العثماني بكل ما فيه من ضعف وجمود وعزلة وأخذت تطل على عصر جديد ، هو بحق نقطة تحول في حياة المجتمع المصرى بصفة عامة ، وحياة المرأة المصرية بصفة خاصة .

وكانت حتمية التاريخ تفرض هذا ، ذلك أن الحضارة ليست حكراً على شعب يعينه ، بل ان من أبرز ميزاتها أنها ذات طابع إنسانى عام ، هي ملك لكل الشعوب ، وثمرة لجهد البشرية مجتمعة وبدون التفاعل بين الشعوب والتأثر والتأثير تفتقد الحضارة أبرز ميزة لها وهي ميزة الاستمرار والديمومة .

ومصر معروفة بدورها الحضارى القديم فهى التى وضعت بذور الحضارة القديمة وعن الحضارة المصرية أخذها اليونان ليستوعبوها ويزيدوا عليها ، ومن اليونان أخذها العرب ليضيفوا إليها ما يتفق وقيمهم وروحهم . ومن العرب أخذتها أوروبا لتضمها وتفيد منها وتعمل على تطويرها وتطويرها لأهدافها . وها هى الآن تعود الحضارة مرة أخرى للعرب بأسلوب سلمى حيناً وأسلوب عدوانى أحياناً . ومصر بحكم موقعها الاستراتيجى ، وتوسطها بين دول العالم ، كان عليها أن تتأهب لملاقاة هذه الوافد الجديد لتنتقى منه ما يتلاءم مع قيمها وروحها ، وتلفظ منه ما لا تراه مستساغاً مقبولا .

والتجديد فى الفكر الإسلامى وصلته وبتربية المرأة لم يكن إلا محصلة للصراع بين شكلين من الحضارة ، شكل غربى متطور طامع ، وشكل شرقى منعزل متخلف .

ولم يكن ليتم التجديد فى الفكر الإسلامى فتتنشط الدعوة لتربية المرأة لو لم يحدث هذا الاتصال بين الشرق الإسلامى وبين الغرب وقد تم الإتصال بينهما بالسبل الآتية :

١ - الحملة الفرنسية .

٢ - محاولات محمد على فى بناء مصر الحديثة .

٣ - جهود رفاة الطهطاوى .

الفصل الثالث

الحملة الفرنسية

فى حديثنا عن الحملة الفرنسية سنعرض للجوانب التالية :

- دوافع الحملة الفرنسية - الحملة الفرنسية والإسلام - الحملة الفرنسية والديمقراطية
- الحملة الفرنسية والخدمات الاجتماعية - الأثر الفكرى للحملة - الحملة والمرأة المصرية
- أهم ما أسفرت عنه الحملة . وهذه هى الجوانب ذات الصلة بموضوعنا .

دوافع الحملة :

مثلت الحملة دوراً من أدوار النزاع القائم بين إنجلترا وفرنسا على التوسع الاستعمارى ذلك النزاع الذى يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر ، والذى استمر خلال القرن الثامن عشر وقد اتخذ هذا الصراع طوراً جديداً بعد الثورة الفرنسية التى قضت على الملكية وقوضت دعائم النظام القديم ومهدت السبيل لنظام جديد فأعلنت الجمهورية ١٧٩٢م .

وقد أراد نابليون بعد الإنتصارات الساحقة التى أحرزها فى حروبه فى إيطاليا ، أن يعد العدة ويجهز حملة يبعث بها إلى مصر لتكون له السيادة فى البحر المتوسط ، ويمكن له أن يتخذ من مصر القاعدة التى ينفذ منها إلى المستعمرة الهندية وبذا يقضى على إنجلترا غريمة فرنسا .

هذا فوق أن نابليون كان واسع الأحلام ، بعيد المطامح ، هيات له إنتصاراته العديدة وحداثة سنه أن ينشئ إمبراطورية كالتى أنشأها العظماء قبله من أمثال يوليوس قيصر . وفى إيطاليا تبلورت فكرة الغزو فأخذ يعد العدة واستولى على أسطول البندقية وضمه إلى أسطوله ، كما استولى على بعض الجزر مثل جنوا ، وكورفو ، وقام بدراسات خاصة عن مصر .

وفكرة الحملة - كما يرى الراقى - ليست وليدة عصر نابليون . ففي القرن الثالث عشر راودت هذه الفكرة لويس التاسع ملك فرنسا باسم الدين ، وفي القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الألماني « لينتز » الملك لويس الرابع عشر بغزو مصر وفي القرن الثامن عشر طافت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة في فرنسا وترددت في تقاريرهم ومذكراتهم^(١) .

ولعل تطور فكرة الحملة عبر هذه العصور يعطى لنا تفسيراً للأثر الخطير الذى أحدثته فى مصر فهى ليست فكرة فجأة أو مجرد غزو بل هى فكرة قائمة على التخطيط والدراسة الإستراتيجية ومحاولة الأخذ بكل أسباب انجاحها .

الحملة والإسلام :

كتب نابليون لرئيس حكومة جنوة المقتة عام ١٧٩٧م يقول : لا تنس أنك كلما جعلت الدين أو حتى الخرافة يصطرح مع الحرية ، فإن النصر سيعقد دائماً للدين على الحرية فى عقل الشعب ، وكتب كليبر « علينا أن نهدهد التعصب حتى ينام قبل أن نستطيع إقتلاعه » . وكتب فى سانت هيلانة يقول : « ان الأفكار الدينية كانت على الدوام مهيمنة على الشعب المصرى فى شتى العصور ... فلما ظهر الإسكندر الأكبر على حدود بلادهم جاءوا ليحيوا هذا الرجل العظيم بوصفه محررهم ، ولما عبر الصحراء فى زحف لم يستغرق غير أسبوعين من الإسكندرية إلى معهد آمون ولما جعل الكاهنة تستقبله بوصفه ابن جويتر - كان يفعل هذا وهو على وعى تام بعقلية هؤلاء الناس ... وقد حقق بعمله هذا من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد ، أكثر مما يحققه لو بنى عشرين حصناً وعزز جيشه بمائة ألف من المقاتلين المقدونيين^(٢) .

ولأن نابليون كان مولعاً بالإسكندر فقد وقف عند سياسته الدينية هذه وقفة الواعى المستفيد فهو يعرف كنه هذا الشعب وحقيقته ويعرف أن سر بقائه وخلوده هو الدين

(١) عبد الرحمن الراقى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٢) ج . كرسنوفر هيرولد (المترجم فؤاد اندراوس) ، بونايرت فى مصر ، القاهرة : دار الكتاب العربى ،

فان الذين يمنحه الصمود والصبر أمام الحاكم الغاصب ، ويعطيه الثورة والمقاومة أمام المستعمر الطامع ، الدين يعنى ذاته فحين يدافع الشعب عن دينه فإنما يدافع عن ذاته .

ولقد تحدث نابليون عن الأسباب التى جعلته ينتهج هذه السياسة الإسلامية فقال « وقد فضلت العلماء ودكاترة الشريعة لأنهم أولا : هم كذلك بطبيعة الحال ، وثانيا : لأنهم هم مفسرو القرآن وأن أكثر العقبات التى تواجهنا ، وسوف تواجهنا أيضا ، إنما تنبثق عن الأفكار الدينية وثالثا : لأن هؤلاء العلماء ذو طباع هادئة ومحبون العدالة وأصحاب مبادئ خلقية عالية ، وهم بدون منازع أكثر الناس أمانة فى مصر ولا يركبون الخيل ولا يمارسون أعمالاً عسكرية ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة^(١) .

كان على نابليون أن يفطن لهذا وأن يعيه جيدا وأن يتخذ لذلك كافة السبل كان عليه حسب قوله « أن يهدد هذا التعصب وأن يجارى الشعور الدينى وإن كان لا يعتقده وقد قال لرفيقه جورجو فى سانت هيلانة « ان المرء فى هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقا للناس وأن يبذل الوعود الكثيرة ولا يفى بوعدها^(٢) .

إدعى نابليون أنه مبعوث العناية الإلهية ، وإن الله تعالى قد خصه برعايته والدليل على ذلك هزيمته للمماليك وقد ذكر أن هذه الثورة العظمى التى جاء بها قد تنبأ بها القرآن فى عدة آيات كما ذكر أيضا أنه « سرت بين الناس مئات الشائعات فقال بعضهم أن النبى نفسه ظهر للسلطان الكبير وقال له : إجهز بإيمانك بأركان دينى لأنه دين الله ان العرب فى إنتظار هذه العلامة وسأخضع آسيا كلها لسلطانك ويواصل حديثه قائلا « ان السلطان الكبير إنتهز فرصة هذه الشائعات ليلج بأنه فى رده على النبى التمس مهلة سنة يعد فيها جيشه ، فمنحها له النبى ، وأنه تعهد بأن يبنى مسجدا عظيما ، وأن الجيش كله سيعتق الإسلام وأن إثني من كبار الشيوخ هما الشيخ السادات والشيخ البكرى ، يعتبرانه مسلما فعلا^(٣) .

على أن نابليون لم يكتب مثل هذا بل كتب منشورا للمصريين يؤكد فيه إسلامه كتب يقول « بسم الله الرحمن الرحيم » لا إله إلا الله لا ولد له ، ولا شريك له فى

(١) عبد العزيز محمد الشفاوى ، صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وزارة الثقافة والأعلام ، ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

ملكه ، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتصوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت ، يعرف أهالي مصر جميعهم أنه من زمان مديد والسناجق الذين يتسلحون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي ، نحضر الآن ساعة عقوبتهم يا أيها المصريون قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقلوا للمفتريين : أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأننى أكثر من الممالك ، أعبد الله سبحانه وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقلوا لهم أيضا أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والنضائل والعلوم فقط فإن كانت الأرض المصرية التزاما للممالك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل ورحيم . أيها المشايخ والقضاة وأعيان البلاد قولوا لأمتكم أن الفرنساويين هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرس البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها الكوالوريه الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، وقد أصحبر المنشور في ١٨ محرم ١٢١٣هـ^(١) .

ويقال أنه دار نقاش عجيب بين شيوخ الأزهر وبونابرت حول إعتناقه الإسلام فقد أخبر بونابرت أن إعتناقه هو وجيشه للإسلام يحول دونه عقبتان : أولاها مسألة الختان ، والثانية تحريم الخمر فمن الصعب على رجاله أن يقلعوا عن الخمر كما أنهم يزهدون كل الزهد في الختان . وبعد النقاش يقال أن ثمة فتوى ظهرت تزعم أن الختان نافلة وأنه ليس ضرورة لا غنى عنها للمسلم ، أما الخمر فقد يشربها الإنسان وهو مسلم وإن يكن في حالة من الإثم لا تجعله أهلا للاستمتاع بمباهج الجنة .

غير أن نابليون لم تعجبه فتوى الخمر ، فاختلى العلماء طالبين العون من الله لينير بصائرهم وأخيرا أصدروا الفتوى الثانية ومؤداها : أن في وسع الفرنسيين أن يشربوا الخمر ويدخلوا الجنة رغم هذا بشرط التكفير عن هذا الإثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلا من العشر المألوف .

ومن المشايخ الذين اشتركوا في هذا الجدل الفقهي الشيخ البكرى الذى « ألف كل ليلة أن يشمل بشرب خمر مزجت فيها زجاجة من البرجندى بأخرى من البرندى »^(١) .

ومن الوسائل التى لجأ إليها نابليون لمهادنة الشعور الدينى استقطاب الشيوخ والعلماء واكتساب رضاهم وتملقهم فكان الشيوخ وعلماء الأزهر يأتون عند شروق كل شمس إلى قصره قبل الصلاة فيملاً حرسهم ساحة ميدان الأزبكية ويمتطون بغالهم المظلمة ومن حولهم اتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالشوم ، فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية وفى القصر يستقبلهم بالتجلة وتقدم لهم المشروبات والقهوة ، وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الأريكة ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة فى القرآن ويطلب تفسير الآيات الهامة ، وبإبداء إعجابه العظيم بالرمول حتى إذا غادروا القصر انصرفوا إلى المساجد التى تجتمع فيها الناس فحدثوهم بآمالهم وهداؤوا من روع هذه الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين فكانوا يؤدون للجيش خدمات إيجابية جدا »^(٢) .

ورغم هذه السياسة المغرضة ، ورغم هذا التملق والتظاهر بالإسلام ورغم ما أحدثته هذه السياسة فى عقول السذج والبسطاء - فإن هذه السياسة لم تفلح حيث كانت الحملة تذكر دائماً باعتداء الصليبيين ، فقد كان الشعب ينظر إلى رجالها على أنهم دخلاء غاصبون ، سرعان ما ينحسرون عن وطنهم كما انحسر عنه غيرهم وعندما رأى نابليون فشل سياسته هذه بقيام الثورة فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ اضطر إلى العنف واقتحم الأزهر برجاله وخيله .

وكانت هذه الثورة مرحلة أولى لنمو الوعى القومى والإسلامى معاً فقد بدأ العلماء وهم قادة الأمة يحسون بأهميتهم وقدرتهم على توجيه أمور الحياة والمشاركة فى صنعها كما أخذوا يدركون أن واجبهم يملئ عليهم أن يدافعوا عن وطنهم ويدفعوا عنه الظلم وهم فى كل أولئك يستلهمون الذين ويستوحون تعاليمه .

(١) ج . كرسوفر ميرولد (ترجمة فؤاد اندراوس) ، بونابرت فى مصر ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ،

١٩٦٧م ، ص ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

الحملة ونظام الحكم الديمقراطي :

على أن مما ساعد على نمو الوعي القومي الإسلامى معا تلك السياسة التى اتبعها نابليون فى إدارته وحكمه للبلاد وهى امتداد لادعاءاته الإسلامية ، هذه السياسة هى الأخذ بنظام الحكم الديمقراطى .

فقد قام نابليون بتأسيس الديوان وكان أعضاؤه تسعة وكلهم من رجال الدين ومنهم الشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الصاوى وكان مقر الديوان بيت قائد أغا . وعمم نابليون نظام الدواوين فى مديريات القطر المصرى وكان أعضاء ديوان المديرية سبعة ويتم اختيار الأعضاء بالانتخاب ، والسلطة التى خولت للدواوين هى السلطة المدنية التى تتصل بالأمن ورعاية العدل بين الناس ويحث شكوى الشاكين ومظالمهم^(١) .

وقد أمر نابليون باستدعاء المشايخ ورؤساء الجند فانتخبوا أعضاء الديوان الكبير وعقد بعد ذلك منه ومن أعضاء الدواوين الإقليمية ليستشيرهم جميعاً فى النظم التى يرون أن يسير عليها حكم البلاد ، وفى قوانينها القضائية والمالية والإدارية وقد تم انتخاب الشيخ الشرقاوى بالاقتراع السرى رئيساً للمجلس .

وقال الشيخ الشرقاوى عن هذا الديوان « كان فيه رحمة لأهل مصر » غير أن تصورات النواب عن الإصلاحات المقترحة وعن القانون المدنى الأوروبى لم تكن لتتطابق مع الواقع بسبب فكانت فكرتهم مثلاً عن قانون الموارث فى فرنسا « لا يورث الولد وتورث البنت لأن الولد أقدر على التكسب من البنت » ولم يكن هذا ليتفق مع تعاليم الإسلام .

وقد روى الإبقاء على العادات والتقاليد القديمة أوردها إلى ما كانت عليه . ويقول الجبرتي « ان الأعضاء المسيحيين كانوا على تمام الاتفاق فى هذا مع زملائهم المسلمين وكان الإجراء المالى الوحيد الذى اقترح هو فرض ضريبة تصاعدية على العقارات فى المدن يقول الجبرتي « ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور^(٢) » .

(١) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر (ج ١) ، القاهرة : الانجلو المصرية ١٩٥٥ م ،

ص ١٨٨ .

(٢) تاريخ الجبرتي ، ص ٢٦ .

ومع أن تشكيل الديوان كان صورياً إلا أنه أيقظ روح الثورة وبعث الوعي القومى وهز الفكر الإسلامى بما أرساه من دعائم الحكم الديمقراطى فقد بين للشعب أنه هو صاحب الحق فى حكم البلاد وأنه لا يصح للفرد أن يتفرد بالحكم أو يستبد به وأن من حق الشعب أن يثور على الحاكم متى تجاوز قدره وانتهك القانون ، فالحكم يجب أن يكون شورى وأولو الأمر يجب أن يلتزموا بتعاليم الشرع .

فتشكيل الديوان نبه الشعب لحقه فى الحكم والرقابة وذكره بعهود السلف الإسلامى عندما كان الأمر شورى كما أن تشكيل الديوان نبه العلماء ورجال الدين إلى واجبه فى أمر الحاكم بالمعروف ونهيه عن المنكر أو الحيلولة بنيه وبين الحكم الفردى والقيام بالبحث والدراسة التى توضح نظام الحكم الإسلامى ولعل هذا يفسر ما وقع بعد ذلك من أحداث تؤكد نشأة هذه اليقظة فقد دار حوار بين السيد عمر مكرم ممثل الشعب والعلماء وبين مندوب خورشيد كيف تتورون على من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى : ﴿وَأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ فرد السيد عمر مكرم : ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعته فلقد كان لأهل مصر دائماً الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أننى لا أكفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه^(١) . فهذا وغيره مما حدث من ثورات ، وقدرة الشعب على التصدى للسلطان العثمانى وإرغامه على عزل الحاكم ، وقيامه بتنصيب محمد على واليا على البلاد - يؤكد أن الديوان فى حياة البلاد السياسية .

الحملة والخدمات الاجتماعية :

سجل الجبرتى الكثير من الأعمال والتنظيمات التى قام بها الفرنسيون والتى كان لها أثر طيب فى حياة المصريين ومن ذلك العناية بالصحة والنظافة فقد أمروا ألا يدفن أحد من الموتى داخل القاهرة وجعلوا مدافن الموتى خارجها . كما أمروا بالتبليغ عن المرضى إذا كان هناك وباء ، وعدم الانتقال من مكان موبؤ ، ومن يخالف الأمرين يقتل ولو كان

(١) محمد فريد أبو حديد ، سيرة السيد عمر مكرم ، لجنة التأليف والترجمة ، القاعدة ١٩٣٧ ، ص ١٤٦ .

فرنسيا . كما أمروا الأطباء أن يقوموا بالكشف على المرضى وقد أقاموا حجرا صحيا في بولاق يتلقون فيه كل قادم للقاهرة حتى يكشف عليه فإن كان مريضا حجز وينقل إليه كل مريض حتى يشفى أو يموت . وأكدوا على نشر الثياب وتطهير المنازل درءا للوباء .

ومن أهم ما قاموا به تقرير شهادة للولادة حيث أمروا بقيد كل مولود ، كما أمروا بتسجيل الممتلكات وإضاءة الشوارع والأزقة ، كل دار عليها قنديل ، وكل ثلاثة دكاكين عليها قنديل ، والعناية بالإضاءة الغرض منها الحفاظ على الأمن ، كما أنشأوا جوازات للسفر وخصصوا ضريبة ثابتة على الموارث وقد كانت من قبل تخضع لرغبة الحاكم مما جعل الشعب يعاني الظلم الكثير وفرضوا رسما ثابتا على الأقضية وخصصوا وثائق لتسجيل عقود الزواج خاصة .

ومن الخدمات الاجتماعية التي قاموا بها والتي سجلها الجبرتي - محاربة التسول والشعوذة ذلك أنهم خصصوا دارا جمعوا فيه المتسولين وفرضوا لهم مالا ينفق عليهم من أموال الأوقاف وكان بعض البلهاء ومدعو الولاية يسبرون في الشوارع عراة يصيحون ويصرخون مع أنهم لا يصومون ولا يصلون وقد سأل الجنرال مينو العلماء في ذلك وهل يعد هذا من الدين فأنكر العلماء وأمر الجنرال بالقبض عليهم جميعا فمن كان منهم مريضا أدخله المستشفى ومن كان سليما أخرج من القاهرة .

ومن خدماتهم الاجتماعية أيضا إنشاء الأرشيف في الديوان الذي تحفظ فيه صور الشكاوى والتظلمات وما يصدر عن الديوان من أحكام .

وتحقيقا لأمن الدولة أمروا كل صاحب فندق أو خمارة أو بيت أن يكتب اسم من ينزل في محله أو يدخله ويبلغ ذلك لحاكم البلد قبل مرور يومين مع بيان الجهة التي قدم منها النازل أو الزائر وسبب قدومه ومدة سفره والعمل الذي يزاوله^(١) .

ومن أعمالهم الاجتماعية أيضا إقامة مصانع للأدوية وطواحين الهواء وفرض الحجر خارج القاهرة وفي الإسكندرية وفي رشيد ودمياط .

وتسجيل الجبرتي لهذه الأعمال واعترافه بفضل الفرنسيين ليؤكد ما ذهب إليه المؤرخ الإنجليزي « توينبي » من أنه كان صورة نموذجية لتأثر الحضارات بعضها ببعض وأن

(١) الجبرتي ، مظهر التقديس ، وزارة التربية والتعليم ١٩٦١ ، ج ١ ، ج ٢ .

الإسلام لم يكن ديناً جامداً وأن الجبرتي وهو الرجل المسلم لم يكفر بدينه عندما رأى الفرنسيين ينتصرون ويتقدمون بل هو رأى أن دينه عظيم ، وذكر أن الفرنسيين لا يظلمون أجيراً وإنما يعطون للقاتل فرصة الدفاع عن نفسه .

ويؤكد « توينبي » أن الجبرتي رجل محب للعدل موضوعي منصف ويراها أنه أعظم المؤرخين في كل العصور^(١) .

الأثر الفكرى للحملة الفرنسية :

بنفس القدر الذى أولاه نابليون للغزو العسكرى كان الإهتمام بالغزو الفكرى فأسس نابليون المجمع العلمى وتم تأسيسه فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م وقبل أن نتحدث عن آثار المجمع يجدر أن نشير إلى الدوافع التى حملت نابليون على تأسيسه ؟

وكانت هناك دوافع عديدة حملت نابليون على إنشاء المجمع العلمى ولكنها لم تكن متناقضة ، كان لا يزال مزهوا بانتخابه فى ١٧٩٧م عضوا بالمعهد القومى الفرنسى ، ومع ذلك فقد كان يحس أن العلم له آثار خالدة أبقى من آثار الحرب ولقد صرح غير مرة بأنه عدو للعسكرية . فالعظمة تملئ عليه أن يكون أكثر من قائد وأكثر من دكتاتور وأكثر من امبراطور وإذا لم يترك أثراً فى التشريع وفى التقدم الصناعى والعلمى وفى جلائل الأعمال الفنية فإن حظه من التاريخ سيكون مجرد فترة عابرة ، ومصر أرض صالحة لمثل هذا الصنيع .

وكانت القدرة على الجمع بين حب العظمة الشخصية ونفع الناس إحدى المواهب الكثيرة التى تفرد بها ، فأنشأ المجمع العلمى المصرى ليُساعد فى إدارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها فى المستقبل .

وكانت الغايات التى يقصد إليها من وراء المجمع قسمين :

١ - سد الحاجات العاجلة كإقامة طواحين للهواء ، وتطهير الترع وصيانتها . وإصلاح النظام المالى والتمهيد لتطور مصر الاقتصادى بالقيام بدراسات حول شق القناة وإدخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ووضع نظام تعليمى جديد ، وكان كتاب « وصف مصر » سجلاً لكل هذه الغايات . ويقول « ج . كرسنوفر هيرولد »

(١) أنيس منصور ، « مات أشجع رجل فى العالم » جريدة الأخبار ٢٥/١٠/١٩٧٥ .

ولم يرقم أحد من قبل ولا من بعد بدراسة تتميز بهذا الإتساع وهذه الدقة على أساس عمل ميداني تم في مثل هذه الفترة القصيرة وفي مثل هذه الظروف المرهقة غير المواتية^(١) .

٢ - القسم الثاني من الغايات ، وهو جانب معرفي بحث قصد به دراسة كل جانب من جوانب هذا البلد الأسطوري الذي لا يعرف عنه إلا القليل - تاريخه ، آثاره ، فنونه ، بيئته الجيولوجية .

ويقال أن نابليون صرح بأن أحجار الهرم الأكبر قد يبنى بها سور يحيط بفرنسا عرضه متر وإرتفاعه ثلاثة أمتار ، كما يقال أنه رفض أن يدخل هرم خوفو لأن الدخول يقتضيه أن يزحف على يديه ورجليه وهذا ما يتنافى مع إباته^(٢) .

على أن أهم الآثار الفكرية للحملة الفرنسية هو تلك المطبعة التي كانت تطبع باللغات الفرنسية واللاتينية ، واليونانية والسريانية والعربية وكان أول كتاب تم طبعه « تطبيقات في العربية الفصحى » مختارة من القرآن لينتفع بها دارسو العربية وقبل وصول الفرنسيين إلى مصر لم يكن قد طبع في مصر سطر واحد .

ويفضل المطبعة ظهرت الصحافة السياسية والاجتماعية التي أخذت تعمل على تشكيل الرأي العام وعلى إنماء الوعي القومي والفكري وعلى معالجة المشاكل الاجتماعية ومن أهمها قضية المرأة التي شغلت جانباً كبيراً من فكر القرن التاسع عشر .

فالحقيقة أن الحملة الفرنسية لم تكن مواجهة بين دولتين أو جيشين بقدر ما كانت مواجهة بين عقليتين : عقلية جامدة متخلفة ، وعقلية راقية آخذة في التطور . وكان لابد أن يسفر الصراع عن تصدع في المفاهيم والمعارف التي ألقتها العقلية الشرقية وأن تهتز هذه العقلية الشرقية لتلك المعارف الجديدة التي واجهتها مع العقلية الغربية وكان لابد أن يكون هذا نواة لبقطة فكرية سوف تثمر وتزدهر على امتداد القرن التاسع عشر .

الحملة الفرنسية والمرأة :

كان للحملة في حياة المرأة المصرية أكثر من أثر ، وبعض هذه الآثار كان حميداً والبعض الآخر كان قبيحاً .

(١) بوناپرت فن مصر ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

وعن الأثر القبيح فوقاً للتقاليد والعادات الاجتماعية التي حملها معهم الفرنسيون كان يجوز الاختلاط علانية بين الرجل والمرأة ولم يكن الرجل الفرنسي يرى أى غضاضة أو عيب فى أن يصحب امرأة فى نزهة سواء أكان ذلك فى حديقة أم فى شارع ، ولقد أنشأ الفرنسيون فى غيط النوبى بالأزبكية منتزها مبنيا على هيئة مخصوصة ، يجتمع فيها الرجال والنساء للهو والخلاعة - على حد تعبير الجبرتي - فى أوقات مخصوصة وكانوا يجعلون على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذونا وبيديه ورقة كتصريح بالدخول .

وقد عمد الفرنسيون أيضاً إلى ممارسة التسلية والترفيه فأنشئوا المسرح وزاولوا التمثيل . وكانت حفلات المسرح تقام فى كل عشر ليال مرة واحدة لمدة أربع ساعات وقد صادفت هذه الحياة الجديدة هوى فى نفوس البعض فشاركوا الفرنسيين لهوهم ومجونهم وأخذوا يقلدونهم فى سلوكهم وثيابهم . وقد وطد هذه المشاركة ماتم من زواج بين بعض الفرنسيين وبين بعض المصريات مما عمل على نشر هذه الحياة الجديدة واجتذاب الكثيرين إليها .

وقد لخص الجبرتي حياة المرأة المصرية فى تلك الفترة فقال : ومنها - حوادث ١٢١٥ - تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نسائهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى ، والمزركشات المصبوغى ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عتيقاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل الفواحش فتداخلن معهم لخضوعهن للنساء وبذل الأموال لهم وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض إحتشام وخشية عار ومبالغة فى إخفائه ، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيين بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسونه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات ، غيرهن من النساء الفواجر ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيين ومن الأهم وشدو رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة موادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربنه بتاسومتها (حذائها) فطرحن

الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملمن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات^(١) .

تلك كانت هزة عنيفة لنظام الحريم السائد المتشدد وثغرة تنطلق منها الرغبات المكبوتة المغرضة واقتحاماً لداخل حياة المرأة .

وكان طبيعياً أن بكثر البغاء وأن يزيد عدد البغايا وأكثرهن أرامل ومطلقات حتى أن الجوارى السود عندما أحسن رغبة الفرنسيين فى الأنثى لذات الأنثى كن يتسلقن الأسوار ويتسابقن إليهم^(٢) ولقد أصدر الديوان أمراً بمنع دخولهن القاهرة وضواحيها شهراً وفرض عقوبة الإعدام على من تدخلها منهن أو من يدخلها وكان ذلك سبب إنتشار الطاعون^(٣) .

وكانت زينب بنت البكرى مثلاً مجسداً للأثر السيئ الذى خلقتة الحملة الفرنسية فقد تبرجت مع الفرنسيين وخرجت عن طورها معهم ودفعت حياتها بعد جلائهم ثمناً لذلك .

أما عن الأثر الحميد ففى حياتهما الزوجية قد أخذت المرأة تأسى لحالها بل تنور عليه وتطالب أن تعامل معاملة كريمة غير هذه المعاملة الظالمو البهيمية فقد تزوج الجنرال مينو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات إذ كان يمد إليها يده كلما هم بالدخول معها إلى غرفة الطعام ويتحرى لها أوثق المجالس ويقدم إليها خبير الأطعمة وأشهاها وكان إذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه وأعاده إلى مكانه وقد روت إحدى النسوة لصاحباتها هذه المعاملة وهن فى أحد حمامات رشيد سنة ١٧٨٨ ، فنارت النساء لذلك ولاحت لهن بارقة أمل فى تغيير أحوالهن وعاداتهن وحررن عرضاً قدمته إلى السلطان الأكبر بونايرت ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل ما يعامل مينو زوجته الرشيدية^(٤) .

(١) الجبرتي ، مظهر التقديس ، ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) بونايرت فى مصر ، ص ٢١٧ .

(٣) مصر فى القرن الثامن عشر ، ص ١٨٣ .

(٤) كلوت بك ، لحة عامة إلى مصر ، ص ٦٢٤ .

فى الوطنىة :

هذى فىما يتصل بىحاتها الزوجىة أماً فىما يتصل بوطنىتها فقد أذكىة الحملة فىها روىة
الهامسة والوطنىة وجعلتها تقف جنباً إلى جنب مع الرجل فى ثورته ودفاعه عن وطنه .

فى التعلیم :

وعن تعلیمها فقد كان علیها أن تنتظر طویلاً حتى یزداد اللقاء بالغرب ویقوى التأثير
به فما كان الحملة الفرنسىة إلا الطرقة الأولى الفرىة على باب العزلة والجمود فى مصر
الشرقىة .

وأخيراً فإن ما أسفرت عنه الحملة الفرنسىة كان یتمثل فى الدعوة إلى الیقظة الفكرىة
بإستخدام المنهج العلمى الصحىح القائم على الملاحظة والتجربة ورفض أسلوب الجدل
والشعوذة والخرافة كما كان یتمثل فى بداية ظهور الرعى القومى والدىنى ، وهذان كانا
دعامتىن لیقظة الفكر الإسلامى وتربىة المرأة .

obeikandi.com

الفصل الرابع

محاولات محمد على فى بناء مصر الحديثة

تحدثنا عن الحملة الفرنسية وذكرنا أنها كانت تمثل لقاء جديدا فى تاريخ مصر الحديث ولكنه لقاء مشوب بالحذر والتوجس ومنطبع بالغزو والإعتداء ومع هذا فقد تهيأت التربة المصرية لتقبل بذور التجديد واحتضانها مهما قيل عن هذه الحملة ومهما اختلفت الآراء حول أهميتها إما بدافع النزعة القومية أو بالإنبهار بأثرها فإنه لا يمكن إغفال الدور المهم الذى أدته كرافد من روافد التجديد وسبيل من سبل إتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، ويكفى أنها لفتت أنظار العلماء إلى أهمية الإستفادة من هذه الحضارة الغربية ولقد كان الشيخ حسن العطار - ١٨٣٤ م - خير مثال لذلك ، كذلك يكفى أنها تركت بصماتها على حياة المرأة المصرية فى جوانب متعددة مهدت للدعوة إلى تعليمها والإرتقاء بتربيتها .

وحدثنا الآن عن اللقاء الثانى بإعتباره أحد الروافد التى أدت إلى التجديد وهو لقاء يشغل مساحة زمنية تمتد لتقرب من نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ويتميز هذا اللقاء من سابقه بأنه تحرر كثيرا من طابع التوجس والحذر وصار مبعثه الرغبة والحرص على الإفادة من مصادر الحضارة الغربية .

على أن هذا اللقاء بين العقليّة الشرقيّة وما إعتراها من جمود ، والعقليّة الغربيّة بكل ما فيها من تجدد وتطور كان لا بد أن يتم ، وكانت تمليه حتمية التاريخ فمنذ أن رحلت الحملة عن مصر ١٨١٠ م كانت هناك محاولات استعمارية تبغى السيطرة على مصر بعد أن إتضحّت أهمية موقعها ومكانها من دول العالم ، وتمثلت هذه المحاولات أخيرا فى تلك الحملة الإنجليزىة التى باءت بالفشل فى رشيد ١٩٠٧ م على أنه مع التقدم العلمى الذى أدى إلى سرعة الإتصال بين الشعوب كان من غير المتصور أن تظل مصر بعيدة عن ميدان الإتصال الحضارى .

والحديث عن اللقاء يعنى الحديث عن محمد على بإعتباره شغل من مساحة القرن التاسع عشر ما يقترب من نصفه وبإعتبار أنه مؤسس دولة مصر حتى لقد صار تأسيس دولة مصر الحديثة مقترنا باسمه كما يبدو من بعض عناوين الكتب التاريخية مثل بناء دولة مصر محمد على « الدكتور محمد فؤاد شكرى وآخرين » .

وفى دراسة عصر محمد على سنعرض للخطوط العامة التى شكلت هذا العصر مع العناية خاصة بما يتصل بموضوعنا من حيث الفكر الغربى وصلته بتربية المرأة .

الوضع السياسى :

أخذ العامل القومى فى الظهور بصورة جادة عقب خروج الحملة الفرنسية وما كان مقدرا لمصر أن تعود إلى ما كانت عليه فى الماضى من رضا بالذل والإستبداد مع المماليك أو العثمانيين ، خاصة وأن الحملة الفرنسية بصرت الشعب بحقوقه عن طريق العلم كإشراكه فى الدواوين أو عن طريق القوة كتنك الثورات العديدة التى قام بها ضد المستعمرين الفرنسيين . فعزم الشعب على التخلص من الأتراك والمماليك ومن أساليب حكمهم البالية ، وتصدر لزعامة هذه الحركة رجال صهرتهم التجارب وصقلتهم الأحداث وفى مقدمتهم الشيخ عمر مكرم زعيم مصر الأول ونقيب الأشراف .

هنا وفى هذه الأوقات أخذ محمد على يظهر « فى مسوح الراهب » ويتودد إلى الزعامة الشعبية التى ظلت تقود البلاد حقيقة فى الفترة ما بين ١٨٠١ - ١٨٠٥ وهى الفترة التى كانت أشبه بحالة من الفوضى^(١) وقد حدث أن عقد مع الزعامة الشعبية حلفا على أن يكون منفذا لأوامرهم وأن يحكم بالعدل ، ولعل مما دفع الزعامة الشعبية إلى مبايعة محمد على هو حاجتها إلى القوة الحربية التى يعتمدون عليها فى تحديدهم لإرادة الدولة ، وترتب على ذلك أن سخط الشعب على الوالى العثمانى « خورشيد » واستطاع أخيرا أن يفرض الشعب إرادته على السلطان العثمانى فتولى محمد على ١٨٠٥ م .

(١) محمد ضياء الدين الرئيس ، الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث ، القاهرة : مكتبة الشاب ، ١٩٦٥ ،

تولى محمد على وفى ذهنه تصورات كبيرة وأحلام واسعة تشجعه عليها ما تتميز به مصر من وفرة فى الخبرات وإمّياز فى الموقع الإستراتيجى وقدرة مصرية على التغيير والبناء .

وكما هو معروف كان محمد على يصدر فى سياسته عن مطامع خاصة ونزعات فردية فقد كان يريد أن يؤسس إمبراطورية على غرار ما صنع الإسكندر وكان هذا محور الكل الأنشطة والأعمال التى قام بها سواء أكانت حروبا خارجية أم إصلاحات داخلية .

ولكى يبنى فلا بد أن يزيل أولا العقبات التى تعترض طريقه خاصة وأنه ذو نزعة إستبدادية وقد تمثلت هذه العقبات فى :

١ - المماليك .

٢ - الزعامة الشعبية .

المماليك :

لقد ضاق محمد على بالمماليك ورأى فيهم ما يحذر من نفوذه وإنطلاقه فقرر التخلص منهم ، ومع أن نفوذهم كان قد تقلص فهو قد أراد أن يدرهم كلية ، فدبر مذبحة القلعة الشهيرة فى أوائل مارس ١٨١١ م . ومهما اختلفت الآراء حول الدفاع عن فعل محمد على هذا أو استنكاره فمما لا أشك فيه أنه عمل غير إنسانى . يقول المسيو « جومار » وهو الذى جعله محمد على مديرا لأول بعثة مدرسية مصرية فى فرنسا لو أمكن نحو تلك الصفحة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لأحكام التاريخ القاسية^(١) . على أن هذه المذبحة كان لها أثرها القوى فى حالة الشعب النفسية فقد أدخلت الرعب فى القلوب وكان هذا نذيرا بإفلال الحياة القومية وفسادها ، وقد حدث فى وقت كانت فيه النفوس تتطلع إلى مراقبة ولادة الأمور ، ودبت فيها روح الحياة الديمقراطية « فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذا الروح إلى زمن طويل وأحلت فى مكانها روح الرهبة من الحكم ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على إنفرادة بالحكم ، فلم يبد من الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو إنتقاء » ومع أن ما أسداه للبلاد من خير فإنه لم

(١) الرانسى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ٣ ، ص ١١١ .

يعرض الشعب عما فقده من الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية وهما من أركان عظمة الأمم^(١).

الزعامة الشعبية :

وهذه وثيقة الصلة بما سبق فقد أدرك محمد على قوة النفوذ الدينى الذى يمثله العلماء واتضح له ذلك فى وقفة الشعب من الحملة الفرنسية ومن الوالى العثماني ، ولأنه أراد الإستئثار بالحكم فقد قرر التخلص من نفوذ العلماء بل وتجميد التعليم الدينى .

ولعل مما ساعده على ذلك هو تفرق العلماء وإختلافهم والكيد بعضهم لبعض يقول الجبرتي فى حوادث أبريل ١٨٠٦ م « وفى هذه الأيام كانت بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات وذلك فى أوائل شهر رمضان ١٢٢٠ وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظراً وقافه » .

ولما كان السيد عمر مكرم هو ممثل هذه الزعامة فقد استطاع محمد على أن يستغل هذا الخلاف فى خلع السيد عمر مكرم فصنع مؤامرة بإشتراك الشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الدواخلى وناظر المهمات « محمد أفندى طبل » ويقال أن الشيخ عبد الله الشرقاوى كان شريكاً فيها فقد كان الشيخ الدواخلى نائباً عنه .

وتمت المؤامرة ونفى السيد عمر مكرم إلى دمياط فى ٩ أغسطس ١٨٠٩ م وما يؤكد التوايا السيئة لهؤلاء الشيوخ هو أن الشيخ محمد المهدي ذهب صبيحة الليلة التى إرتحل فيها عمر مكرم يطلب من الباشا المكافأة على ما قام به فأنعم عليه الباشا بتأخر أوقاف الإمام الشافعي^(٢) .

ولهذا دلالاته من زاوية الفكر الإسلامى فهو يدل على جمود وركود وخضوع لأغراض شخصية وتمسك بمتع الحياة وملذاتها ، كما يدل على عدم وعى وبصر العواقب . لقد عاد السيد عمر مكرم إلى القاهرة ثم نفى ثانية فلم يكن محمد على يطبق وجوده حيث كان يعمل على توجيه الشعور الدينى لمصلحة الجمهور فنفى إلى طنطا ١٨٢٢ م .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

إتجه محمد على بعد إزالة العقبات إلى تنفيذ مطامحه فى التوسع والإنشاء وكانت الوسيلة التى تذرع بها هى الجيش والأسطول ، وبها حرص أولا على أن يحافظ على كيان مصر والبعد بها عن المطامع الغربية خاصة بعد ما شهده من الحملة الفرنسية والإنجليزية . وثانيا - على ضم بعض البلدان إلى مملكته مثل ضم السودان ١٨٢٠ م ، وضم الشام بإعتباره خط الدفاع الأول من ناحية الشرق ١٨٣١ م ، والناظر إلى خريطة الفتوحات يجد أن مملكته قد إمتدت من أطنه شمالا إلى غندكرو بالسودان جنوبا ومن الخليج العربى شرقا إلى حدود برقة غربا .

وقد كانت هذه محاولة لتأسيس وحدة عربية لكنها باءت بالفشل لبعد صاحبها عن الروح العربية ولعدم وجود الوعى القومى اليقظ بالإضافة لسخط الدولة العثمانية وتدخل الغرب وحالة الإستبداد التى فرضها محمد على هذا فضلا عن سياسته الخارجية .

نظام الحكم :

حرص « محمد على » على تنظيم إدارة البلاد وخلق أداة للحكم تمكن - حسب إعتقاده - من السيطرة المباشرة على أمور البلاد ومن هنا جاءت فكرة تأسيس بعض المجالس والدواوين ومنها الديوان العالى أو مجلس الحكومة وإلى جانب هذا الديوان أنشئ ديوان الأشغال وقد تحولت هذه الدواوين إلى نظارات فيما بعد . وفى ١٨٣٤ م تألف المجلس العالى الذى يضم نظار الدواوين ورؤساء المصالح وأثنين من العلماء وأثنين من التجار وأثنين من الأعيان ثم أُلّف مجلسين آخرين هما المجلس الخصوصى ، وإختصاصاته النظر فى شئون الحكومة الكبرى وسن اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع المصالح الحكومية والمجلس العمومى بديوان المالية ويتكون من مديرى بعض المصالح والدواوين ورؤساء الأقسام وإختصاصه أن ينظر فى شئون الحكومة التى تعرض عليه ويرسل قراراته إلى المجلس الخصوصى كذلك أُلّف مجلس الشورى ١٨٢٩ م ويتألف من كبار موظفى الحكومة والعلماء وأعيان القطر وكانت وظيفته إستشارية تتناول مسائل الإدارة والأشغال العمومية وكان ينعقد مرة واحدة فى السنة .

الحالة الاقتصادية :

إرتبطت كل الإصلاحات بإعداد الجيش وبناء الأسطول بإعتبارهما وسيلة لأغراضه ومع ذلك فقد أفادت البلاد منها بصورة غير مباشرة .

لقد كان محمد على أول من قرر ضرورة الإستقلال المالى للإستقلال السياسى فأتجه إلى الإصلاح الاقتصادى .

ففى مجال الزراعة قام بمسح الأراضى ١٨١٢ م وحدد الضرائب وعمل على زيادة المساحة المزروعة فقام بسد بعض المجارى الملحة فى شمال الدلتا مثل ترعة القرعونية ، وقد ذكرها الجبرتي فى حوادث يناير ١٨٠٩ م كما شق ترعا مختلفة منها ترعة المحمودية ١٨٢٠ م ووضع الحجر الأساسى للقناطر الخيرية ١٨٤٧ م وقد تم العمل فيها ١٨٦١ م ورتب على هذه المشروعات أن زادت مساحة الأراضى حتى بلغت فى منتصف القرن التاسع عشر ضعف ما كانت عليه تقريبا فى أوائل هذا القرن .

وقام بإدخال محاصيل جديدة فعنى بغرس الأشجار المختلفة كما عنى بزراعة نوع جيد من القطن واتجه إلى زراعة الفواكه وإستحضر بذور التيلة الهندية والأفيون وتوسع فى زراعة العنب مما ساعد على زيادة ثروة البلاد .

على أن محمد على وإن كان قد ألغى نظام الإلتزام فقد استبدل به نظام الإحتكار ذلك أنه كان هو المالك الوحيد للأرض بحيث يحصل كل فرد على ثلاثة إلى خمسة أفدنة مع مده بالبذور والآلات ، ثم يستولى على المحصولات الزراعية كلها ويخصم منها النفقات والضريبة لكيلا يبقى إلا ما يمسك الرمح ، ولم يكن للفلاح حق الملكية بل كان له حق الإلتفاع بالأرض فقط .

وفى مجال الصناعة ، قام محمد على بإنشاء المصانع التى تدار بالآلات وأهمها مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة ومصنع الغزل والنسيج ومصنع الخبال بالقاهرة ومصنع الطرايش بقوة ومصنع سبك الحديد ببولاق ومصانع السكر فى الوجه القبلى بالإضافة إلى صناعات الصابون والزيت والزجاج وغيرها .

وفى مجال التجارة ، فقد اتسع نطاقها وساعد الأسطول المصرى فى البحر بين المتوسط والأحمر على توسيع نطاق المواصلات البحرية فنشطت التجارة الخارجية نشاطا عظيما وأصلح محمد على ميناء الإسكندرية وأعد - لسير قوافل التجارة - العربات بين السويس والقاهرة وأنشأ به المخطات وكان يرمى من وراء هذا إلى إحياء الطريق القديم طريق مصر والبحر الأحمر .

وإذا نظرنا إلى هذا الإصلاح الاقتصادى من وجهة نظر الشعب فسوف نجد أنه بإتباعه لنظام الإحتكار قد حرم الفلاح والصانع والتاجر من ثمرة جهده وفرض عليه إلزامات لم يكن بوسع التخلّص منها وهذه السياسة وإن كانت قد عادت على البلاد بالأرباح فترة فإنها قد أثرت أسوأ الأثر فى الأحوال الاجتماعية للبلاد كما أن هذا الإصلاح كان مرتبطا بمشروعاته وبإخفاقاتها تدهورت أحوال البلاد وإنكمش اقتصادها .

الحالة العلمية :

عنى محمد على عناية بالغة بالتعليم بإعتباره الدعامة الأساسية لكل إصلاح ولم يكن للإصلاح أن يتم ، وللتطور أن يحدث بدون النهوض بالتعليم والتخطيط له وهذا ما فعله محمد على ، إنه يريد جيشا قويا مجهزا تجهيزا حديثا يحاكى الجيوش الغربية ، وهذا كان يتطلب إعدادا علميا متعدد الجوانب من طب وهندسة وكيمياء وغير ذلك وهو يريد الإستقلال الاقتصادى وهذا لا يتحقق إلا بالدراسة العلمية المنظمة من هنا كان الأخذ بسياسة التعليم أمرا ضروريا .

ولما كانت العلمية التعليمية ما زالت تمارس داخل الكتاب والمسجد والأزهر فقد كان لابد أن يحدث محمد على تغييرا جذريا فى الهيكل التعليمى بما يتمشى مع روح العصر وكانت الثقافة الغربية مستقى هذا التغيير ومصدره .

وقد تم الإتصال بالثقافة الغربية عن طريق :

١ - استقدام الأساتذة الأجانب :

غير أنه وجد من الخطأ أن يكتر منهم ، فكثير منهم لم يكونوا يعرفون أغراض الحكومة أو يعرفونها ولكنهم يعملون على إعاقتها والحيلولة دون تنفيذها ، خاصة إذا كانت هذه الأغراض تصطدم بمصالحهم وأطماعهم ، بإعتبارهم ينتمون إلى دول استعمارية ، وقد كان القرن التاسع عشر أقوى مد للتيار الاستعمارى ، هذا بالإضافة إلى صعوبة التفاهم بين الطلاب وهؤلاء الأساتذة لجهلهم باللغة العربية ويمكن القول أيضا بأن نظرة الطلاب الشرقية ذات النزعة الدينية لهؤلاء الأساتذة الأجانب الذين ينتمون إلى دين غير الإسلام قد جعلت محمد على يقل من إستخدامهم ، ومع أنه ذو نزعة تقدمية إلا أنه كان دائما يخشى الإصطدام بالعادات والتقاليد بإعتبارها جزءا من كيان الأمة وجانبا من شخصيتها .

ثم إن الشعب لم يكن قد تهيأ بعد لمثل هذا النوع من الدراسة العربية بعد أن عاش عشرات السنين بين كتب اللغة والدين وطريقة الحفظ والتلقين لكل هذه الأسباب كان لابد على « محمد علي » أن يلجأ لطريق آخر أكثر ضمانا واتصالا بالثقافة الغربية فكانت البعثات .

٢ - البعثات :

قام محمد علي بإنشاء المدارس والمعاهد العلمية في مصر ليتلقى فيها المصريين العلوم التي تنهض بالمجتمع المصري مثل الهندسة سنة ١٨١٦ م ومدرسة الطب التي أسست ١٨٢٧ م والتي إختارت لها الحكومة مائة من طلبة الأزهر وكان يتولى إدارتها كلوت بك ومدرسة الصيدلة التي ألحقت بمدرسة الطب . ومدرسة المعادن بمصر القديمة ١٨٣٤ م ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب ١٨٣٧ م ومدرسة الزراعة بنبروه ١٨٣٦ م والمدرسة التجهيزية بأبي زعبل بالإضافة للمدارس الحربية والبحرية .

لم يكتف محمد علي بإنشاء المدارس فقام بإرسال البعثات حتى تضارع مصر أوروبا في مجال التقدم العلمي والاجتماعي .

بدأ يرسل الطلبة لأوروبا تقريبا ١٨١٣ م وإتجه أول ما إتجه إلى إيطاليا فقد كان يخشى فرنسا وإنجلترا بعد أن قامت كل منهما بحملة تهدد إستقلال مصر^(١) . لكن بعد ذلك أخذ يرسل الإرساليات إلى فرنسا وإنجلترا وبلغ عدد طلاب هذه الإرساليات ٢٨ طالبا .

أما أول بعثة علمية كبرى فقد بدأت ١٨٢٦ م وتألقت من ٤٠ تلميذا ولحق بهم أربعة آخرون في ١٨٢٨ م .

وفي ١٨٤٤ م أوفدت بعثة كبرى لتلقى العلوم والفنون الحربية تألفت من سبعين تلميذا وفي ١٨٤٧ م أوفدت بعثة صغيرة إلى فرنسا وتألقت من طلبة الأزهر وقد ذهبت لدراسة الحقوق . وقد بلغ عدد الطلبة جميعا الذين أوفدهم محمد علي إلى أوروبا من ١٨١٣ إلى ١٨٤٧ م - ٣١٩ تلميذا كما بلغ تكاليف هذه البعثات ٣٠٣ ، ٣٦٠ من الجنيهات^(٢) .

(١) الراقى : تاريخ الحركة القومية : ج ٣ عن ١٤٥٤

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ومن أعضاء هذه البعثات « رفاة الطهطاوى ، مصطفى بهجت باشا الذى درس الهندسة وكذلك إبراهيم رمضان ومحمد على باشا البقل فى الطب وكذلك إبراهيم بك النبراوى وأحمد حسن الرشيدى ومحمد بك الشافعى ومن الذين درسوا الفنون الحربية على باشا إبراهيم ومن الذين درسوا الملاحة والعلوم البحرية الأميرال عثمان نور الدين باشا وحسن باشا الأسكندراني ، ومن الذين درسوا الطبيعة والزراعة أحمد يوسف أفندى وحسين بك على البقل وأحمد بك ندا »^(١)

والحقيقة أن البعثات كانت تمثل نواة أساسية لحركة اليقظة التى أثمرت فيما بعد فقد أتاحت الفرصة أمام الأعضاء أن يتشربوا روح العصر ويستوعبوه ولا جدال فى أن الإتصال المباشر للأعضاء واحتكاكهم بشكل عملى أتاح لهم اكتساب قدر كبير من الخبرة أثر فى كل جوانب حياتهم الفكرية والسلوكية التى انعكست بدورها على جوانب المجتمع المصرى فأثرت فيها وغيرت منها ، وإن كان التغير قد حدث ببطء كما أن وقوف الأعضاء على جوانب الحياة الغربية ومقارنتها بأوضاع بلادهم قد بعث فيهم روحا من الحماسة والوطنية تهدف إلى بذل كل الجهود وتوظيف الطاقات من أجل النهوض بالوطن ورفعته . وإذا كان هناك من أثر للبعثات بالنسبة للفكر الإسلامى فإنها قد حققت المواجهة المباشرة بين الإسلام والحياة الغربية .

ومن هنا كان على أعضاء البعثات أن يدرسوا من منظور العصر - قضايا الإسلام والأحداث المتعلقة به حتى يدفعوا عن دينهم ما يتهم به من رجعية وجمود .

وكان هذا يفترض بذل جهد علمى كبير منهم حتى يعدوا التربة السليمة الملائمة لإحتضان هذه البذور ونموها ، خاصة إذا ما كان الشعب تغلب عليه الأمية ويخضع للعادات والتقاليد .

٣ - الترجمة :

هناك عامل آخر مرتبط بعامل البعثات وكان له أثره فى زيادة الإتصال بالثقافة الغربية وهو عامل الترجمة . عاد المبعوثون إلى أرض الوطن فعنوا عناية كبيرة بالترجمة وقاموا بترجمة أمهات الكتب الأجنبية إلى اللغتين العربية والتركية بهدف تدريسها فى المدارس ،

(١) عمر طوسون ، البعثات العلمية ، مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية ١٩٣٤ م (فهرس : أسماء ، وتراجم تلاميذ البعثات) .

والنشر والثقافة الغربية ، وقد ساهم السوريون الذين هربوا من الإضطهاد التركي بدور هام فى تنشيط حركة الترجمة ومنهم الأب أنطون روفائيل زاخور راهبية ويوحنا عنحورى وجورج فيدال الحلبي^(١) .

ومن أعضاء البعثات الذين اشتغلوا بترجمة الكتب الطبيعية الدكتور إبراهيم النبراوى والدكتور أحمد حسن الرشيدى والدكتور محمد الشافعى ومن الذين قاموا بترجمة الكتب الرياضية والعلوم محمد بيومى الذى قام بالتدريس بمدرسة المهندسخانة^(٢) .

أما رفاة الطهطاوى - وسنخصصه بالحديث فى الفصل التالى - فهو رائد حركة الترجمة وهو الذى أسس مدرسة الألسن فى ١٨٣٥ م وكانت تدرس بها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والشرعة الإسلامية والشرائع الاجتماعية .

وفى علم الجغرافيا ترجم الجغرافية العمومية وكتاب التعميمات الشافية لمريد الجغرافية وفى السياسة والاجتماع ترجم دستور فرنسا وأحوال الحقوق الطبيعية وكتاب قلائد المفاهر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر .

وفى الهندسة ترجم ثلاث مقالات من كتاب مبادئ الهندسة لمؤلفه لجندر وفى القانون عرب القانون المدنى الفرنسى وقانون التجارة .

وفى الأدب عرب رثاء فولتير وعرب قصيدة فرنسية سماها « نظم العقود فى كسر العمود » ، وكتاب مواقع الأفلات فى وقائع تليماك .

ومن الكتب التى أشرف على ترجمتها كتاب بداية القدمات وهداية الحكماء^(٣) .

وقد ساعدت المطبعة على نقل هذه الكتب ونشرها . فقد لعبت الدور الأساسى فى ذلك وقد بلغ عددها ثمانية مطابع .

٤ - إنتشار التعليم الأجنبى :

على أن مما ساعد على توثيق المواجهة بين الشرق والغرب وتحقيق التفاعل بينهما تأثيرا وتأثيرا - إنتشار التعليم الأجنبى عن طريق الإرساليات الدينية أو الطوائف غير الإسلامية

(١) محمد نؤاد شكرى وآخرين ، بناء دولة مصر محمد على ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ١١٠ .

(٣) أحمد بدوى ، رفاة الطهطاوى ، (مترجماته) ، القاهرة : لجنة البيان العربى ، ١٩٥٩ .

أو الجاليات الأجنبية ، فقد كانت هناك مدارس للأقباط وهى تشبه الكتاتيب وتعلم الإنجيل بدل القرآن والقراءة والكتابة وقد أنشأ الأقباط مدرستين لتعليم البنات واحدة بالأزبكية والأخرى بحارة السقاين . كذلك أنشأت الجمعية القبطية بالقاهرة مدرسة ثانوية تعلم اللغات الإنجليزية والفرنسية وقليلًا من الطليانية والقبطية^(١) .

وكان لليهود أيضا مدارسهم التى تسمى « كريمو » وفى عهد إسماعيل صار لليهود أربعة مكاتب بالقاهرة ، إثنان منها للبنين ومثلهما للبنات ، ويتعلم فيها نحو ١٥٥ تلميذا وتلميذة .

وأسست الطائفة الأرمنية مدرسة لها ببولاق على النمط الأوروبى ١٨٢٨ م كذلك أسست الجالية اليونانية فى ١٨٤٧ م مدرسة « توسما » .

أما الإرساليات فقد بدأت بإنشاء الكنائس ثم ألحقت بها المدارس لتوسيع دائرة نشاطها ، ويكاد التعليم الأجنبى فى مصر يكون حرا فى يد جماعة آباء الأرض المقدسة ، وقد فتحت أول مدرسة نظامية عام ١٨٤٠ م - يقوم بالتعليم فيها جماعة الفرير وتحت إدارة الآباء العذارين وقد إستقل الفرير بمدرستهم فى ١٨٤٧ م ، ومن المدارس التى أسست مدرسة الرحمة لجمعية ديفيل دى لشارنية فى ١٨٤٤ م^(٢) .

وكانت أبرز المدارس التى ساهمت فى التنبيه لتعليم البنات - مدرسة البنات التى افتتحت فى ١٨٣٥ م تحت إدارة « هوليداي » وقد أرسلتها جمعية السيدات لنشر تعليم المرأة فى الشرق . وبعد عشر سنوات من إنشائها تخرجت فيها ٣٠ فتاة قادرة على القراءة والكتابة وكسب العيش بالتطريز وأشغال الإبرة .

وقد لفتت هذه الظاهرة نظر محمد على إلى ضرورة تعليم البنات والخروج بها من سجن الحريم ، فكان يرى أن يبدأ بنشر هذا التعليم فى الطبقات العليا أولا ثم تعمم بعد نجاحها فى أنحاء البلاد ، وبالفعل كان يتردد على قصوره « مس هوليداي ومسليدر » بهدف تعليم القراءة والكتابة وأشغال الإبرة والتطريز .

وفى عام ١٨٤٠ م أخذ الأمراء يحضون حذو محمد على فكانوا يعدون بتعليم بناتهم إلى معلمات إنجليزيات وفرنسيات وألمانيات إلى جانب المشايخ .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٦٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧١ .

وواضح أن المواجهة بين الشرق والغرب قد امتدت حتى شملت تعليم البنات فلم يعد تعليمها شرقيا محضا بل شرقيا أوربيا^(١) .

هذا عن أهداف محمد على ، وعن سبل الإتصال بالثقافة الغربية . ونريد فى إيجاز أن نتعرف على ملامح الحركة العلمية ، ومكان التعليم الدينى منها ، أما عن ملامح هذه الحركة فتتلخص فى الآتى :

١ - الإهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية :

فقد إرتبطت هذه العلوم بالتقدم المادى وواضح هذا من البعثات التى أرسلها محمد على للخارج ، فكلها كانت تهدف إلى الإلمام بهذه العلوم حتى يفيد منها فى بناء الجيش ، كما يتضح أيضا من المدارس التى أنشأها مثل مدرسة المعادن عام ١٨٣٤ م ومدرسة الفنون والصنائع عام ١٨٣٩ م ومدرسة الطب البيطرى .

٢ - العناية بالتعليم العسكرى :

وهذا واضح من المدارس الحربية والبحرية التى أنشأها مثل مدرسة سيف ومدرسة اسنا ومدرسة أركان الحرب التى بدأت الدراسة بها فى عام ١٨٢٥ م ومدرسة السوارى التى أنشئت فى عام ١٨٣١ م ومدرسة الطوبجى التى أنشئت فى عام ١٨٣١ م والمدرسة البحرية بالإسكندرية التى كان تلاميذها يتعلمون فى بناء السفن والعلوم المتصلة به وقد بلغ عدد التلاميذ بهذه المدرسة حتى وصلوا إلى مائتين وألف تلميذ^(٢) .

٣ - تنشيط حركة الترجمة :

نشطت حركة الترجمة واتسعت دائرتها بحيث غطت كل الفنون والمعارف المختلفة التى كان يحتاج إليها محمد على فى بناء مصر الحديثة وقد أدى ذلك لإنشاء مدرسة الألسن التى لعبت دورا كبيرا فى تطوير اللغة وإتاحة الفرصة للتعرف على معالم الفكر الأوربى الحديث .

(١) المرجع السابق ، ص ٦٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

٤ - الإهتمام بالتعليم العالى :

كان محمد على يتعجل النتائج ويريد الوسائل السريعة التى تمكن من إنجاز مهامه وأغراضه ، لذا لم يلق بالاً كبيراً للتعليم الأولي وشعار « تعليم العباد » كان شعاراً أجوف ولو أنه كان يقصد حقيقة هذا الشعار لإهتم بالتعليم الأولي بإعتباره القاعدة الشعبية . ومما دفع محمد على إلى هذا أنه كان يقصد من التعليم جانبه الوظيفي الذى يمكن من تخريج موظفين يعاونون فى تحقيق مشروعاته .

ولسنا مع ما ذهب إليه الرافعى من إستحسان العناية أولاً بالتعليم العالى فهو يقول : « عني أولاً بتأسيس المدارس العالية وإيفاد البعثات ثم وجه نظره إلى التعليم الابتدائي ، ونعم ما فعل ، لأن الأمم إنما تنهض أولاً بالتعليم العالى الذى هو أساس النهضة العلمية^(١) .

فالإصلاح يجب أن أن يبدأ من القاعدة حتى يكون إصلاحاً جذرياً وإلا فإنه لا يرجى له بقاء ، وهذا ما قد حدث ، فبانكماش أغراض محمد على إنهار إصلاحه التعليمي فأغلق العديد من المدارس العالية .

مكان التعليم الدينى :

ارتقى محمد على منصة الحكم وما زال الأزهر وحده مصدر الثقافة والتعليم بالإضافة إلى الدور المتواضع الذى تقوم به الكتاتيب فكان الأزهر أداة التشكيل الفكرى وقد ساعد على ذلك قدمه فى التاريخ وتغلغله فى كيان المجتمع المصرى ، وما تعرض له هذا المجتمع من إعتداءات وسطو ، فكلما كثرت الإعتداءات والمظالم كلما كثرت التمسك به ، ثم إن تيار الرقى لم يكن قد إمتد بعد ليهز ما رسخ منه .

ولأن محمد على كان فى حاجة إلى إصلاح عاجل يتطلب نوعاً حديثاً من التعليم فقد كان أمامه أحد سبيلين : إما أن يتخذ الأزهر أدواته ، أو ينشئ تعليماً جديداً . ووجد أنه لا قبل له أن يمس الأزهر بالتغيير وهو له ما له من قداسة فى النفوس دينية ووطنية ، على أنه كان من الصعب أن يتقبل طلابه التغيير وأن يقتنعوا بضرورة تبديل الهدف ، من هنا ترك محمد على التعليم القديم أو التعليم الدينى ممثلاً فى الأزهر والكتاتيب يؤدى دوره

(١) الرافعى ، تاريخ الحركة القومية فى عصر محمد على ، ص ٤٤٠ .

المعتاد ، وإتجه إلى إنشاء تعليم حديث وظيفنى تحتكره الدولة وتهمين عليه بنفسها ، ونجم عن ذلك ظهور هذا الإزدواج التعليمى فالتعليم الدينى من جانب والتعليم الحديث من جانب آخر وقدر للتعليم الدينى أن يعتزل الحياة وأن يعكف على تدريس العلوم الدينية واللغوية عن طريق الحفظ والإستدكار كلما قدر له أيضا أن يجذب إليه أكبر عدد من المتعلمين لأن مدارس التعليم الحديث كانت محدودة كما قدر له أن يتمتع بحرية مطلقة فى مناهجه وفى أغراضه ، بخلاف التعليم الحديث فلم يكن سهلا أن يقبل عليه الشعب وقد إرتبط بالجنديّة التى تباعد بين المرء ووطنه ، والمصرى بطبعه يحب وطنه ويحن إليه حتى لقد كان عامل الحنين من العوامل التى أدت إلى إعياء جيش لتفشى النسطالجيا أى مرض الحنين للوطن ولقد مات بسبب هذا المرض عدد كبير جدا^(١) .

ويصف « بورنج » التعليم فى المعاهد الدينية بأنه قليل الجدوى وأنه يهبط فى مستواه حتى ليبلغ من التفاهة حدها الأقصى^(٢) .

ومع ما لكل نوع منهما - التعليم القديم والحديث - من خصائص فقد أثر كل منهما فى الآخر ، أثر الأزهر بطريقة تدريسه القائمة على الجدل والنقاش والحفظ والتلقين وبروحته التى كانت تقف من العلوم الغربية موقف الحذر والتوجس ويكفى أن يجعل محمد على للبعثة إماما يعظها ويهديها ويصرفها عن مفاتن الحياة الغربية ويباعد بينها وبين الإحتكاك بالغرب ، على أننا لا ننسى أنه كان يختار بعض أعضاء البعثات أحيانا من الأزهر .

كذلك أثر التعليم الحديث فى الأزهر ولقد حاول بعض مشايخ الأزهر أن يدخلوا فيه التعليم الحديث مثل الشيخ العروسى الذى فكر فى تدريس بعض علوم الطب والصحة والشيخ حسن العطار الذى أعجب بثقافة الفرنسيين وإتصل بها ، ولا ننسى أنه هو الذى رشح رفاعة الطهطاوى الأزهرى للخارج عام ١٨٢٦ م .

تعقيب :

يقول محمد على إن الصعوبة فى البداية وقد كان على أن أبدأ بدبوس أنبش به أرض مصر وقد توصلت الآن إلى أن أستعين بالفأس غير أنى أريد أن أتمتع بكل مزايا المحراث .

(١) محمد نكرى شكرى وآخرين ، بناء دولة مصر : ص ٣٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، تقرير بورنج ، ص ٦٦٤ .

ويقول : لقد أتيت إلى مصر فوجدت البلاد يسكنها جماعة من المتبريرين لم يكن بها فرد واحد يعرف القراءة والكتابة إنى لم أجد سوى شخص واحد يصلح لأن يكون سكرتيراً لى فبذات كل ما فى وسعى لإدخال المدنية فى البلاد وكنت أعرف أن أوربا أسبق من مصر فى ميدان الحضارة فحاولت أن أنقل إلى هذه علوم تلك .

ويقول : لو أتيت لى أن أكرس نفسى عشر سنوات لإصلاح مصر إذا قدر لى أن أعيش هذه المدة فسوف أحدث فى البلاد تغييراً شاملاً .

ويقول : لا تحكموا على طبقاً للمستوى العلمى الذى بلغتموه بل وازنوا بينى وبين الجهل الذى يحيط بى فليس فى إستطاعتنا أن نطبق فى مصر الأساليب التى تطبق فى إنجلترا إذ أنكم لم تصلوا إلى الحالة التى أنتم عليها الآن إلا بعد قرون أما أنا فلم يمض على غير سنوات قليلة^(١) .

وواضح من هذه الأقوال مدى الجهد الذى بذله محمد على ومدى المقاومة التى واجهته فهناك عموميات يؤمن بها الشعب ويتحمس لها ، وهذه البديلات الجديدة كان لابد لها من فترة طويلة حتى تدخل ضمن إطار العموميات ويتقبلها الشعب لذلك فإن تغييراته السريعة وتعبله لنتائجها قد أوجد نوعاً من التخلف الثقافى وعدم تحقيق توازن بين التقدم المادى والتقدم الفكرى .

ومع أن محمد على قد أهمل التعليم الدينى إلا أنه مهد السبيل ليقظة الفكر الإسلامى بطرق غير مباشرة نتيجة حرصه على الإتصال بالغرب إتصالاً لا خوف منه ولا قلق .

ومع أنه أوجد ثنائية فى التعليم فهذه الثنائية نفسها كانت ظاهرة حميدة حيث جمعت الحضارتين الشرقية والغربية وجهاً لوجه لكى يحدث بينهما التفاعل ليسفر بعد فترة عن يقظة قومية دينية معا تتوفر لها العوامل التى تساعد على دفعها قوياً إلى الأمام .

تعليم المرأة المصرية فى عهد محمد على :

لقد ظل هذا الجانب مرتبطاً بالعادات والتقاليد التى دخلت ضمن إطار الدين فلم يكن يصح للمرأة إلا أن تتعلم أمور دينها فقط .

(١) من تقرير بورنج .

ولا يمكن أن نغفل مدارس الإرساليات الأجنبية في التمهيد للدعوة لتعليم البنات فقد إتفق بها عدد من البنات المصريات ، وقليل منهن مسلمات ومعظمهن قبطيات يتعلمن فيها التطريز والقراءة والكتابة واللغات الأجنبية ، وكانت هذه المدارس هي وحدها الموجودة في مصر لتعليم البنات^(١)

ولقد ظل الكتاب يحتل مكانا مرموقا في تاريخ التعليم في مصر وكان النواة التي بنى عليها التعليم فيما بعد ، ومع أنه اقتصر على الصبيان فقد إلتحقت به قلة من البنات وكن محجبات ، وكانت هذه القلة تؤدي الصلاة مما دفع بأسرهن لإحضار شبيخة تذهب يوميا للحریم لتعليم النساء الصلاة وبعض الآيات القرآنية ، إلى جانب القراءة والكتابة ، وإلى جانب ذلك كانت البنات تتعلمن أشغال الإبرة والتطريز وكانت الأسر الميسورة تستأجر مدرسة لتعليم البنات تلك الأشغال^(٢)

ويذكر « طه حسين » في كتابه الأيام كيف كانت تتردد فتاة على الكتاب كيفية تسمى « نفيسة » وكانت أحفظ الصبيان ألوان الغناء والتعديد والقصص . وهذا يدل على أن البنات إلى عهد قريب كانت تتردد على الكتاب .

على أن محمد علي - كما ذكرنا - قد جعل من نفسه قدوة حين أحضر مرييات أجنبيات لنساء القصر لتعليمهن أشغال الإبرة والتطريز والقراءة والكتابة .

وكانت المدرسة الوحيدة التي أنشئت في تلك الفترة هي مدوسة الولادة ، وقد أنشئت بعد مدرسة الطب وبعد أن إزداد الشعور بجهل الموليدات فلما كان من الصعب إقناع السيدات المصريات بأن يولدهن أطباء من الرجال فقد وجد أنه من الضروري تأسيس مدرسة لتخريج موليدات متعلمات ، وقد بدأ التفكير فيها في عام ١٨٣٠ م فقد رأى رئيس إمتحانات مدرسة الطب أن آخر وسيلة لرفع شأن المدرسة إنشاء دروس الولادة وتطبيب النساء والأمراض السرية ، ويقوم بإلقائها الدكتور كلوت بك وليس على الحكومة إلا أن تمدّه بالتلميذات لا التلاميذ وفقا لتقاليد البلاد .

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٥٦٣ .

DARWISH , M . A . , Factors Affecting The Education of Women in Egypt (U . A . R .) , Theses , (٢)
University of London , 1963 .

قد بدأ تأسيس هذه المدرسة بعشر من الجوارى السوداوات الصغيرات اللاتي وسهّل جمعهن ، وذلك بعد أن عجزت الحكومة المصرية أن تجد والدا واحدا يقبل إلحاق ابنته بهذه المدرسة رغم أن الدراسة والإقامة والملابس كانت كلها على حساب الدولة .

وقد حاول محمد على أن يرغم الجنود على إرسال بناتهم إليها وفرض عليهم عقوبات لكنهم آثروا العقوبات على إرسال بناتهم .

وقد بدىء بتعليم هؤلاء الجوارى القراءة والكتابة والدين على يد شيخ عالم ثم درسن رسالة مترجمة إلى العربية فى فن التوليد ، وكانت الآنسة جوليت وطبيب مصرى يقومان بالشرح على مثال إنسانى مصنوع .

وعلى مدى ثلاث سنوات أتمت التلميذات الدراسة بها فالتحقن بمستشفى صغير للنساء بقرب مدرستهن بأبى زعبل يتسع لعشرين سريرا .

على أن تجربة صغار الاماء لم تنجح لعدم ملائمة المناخ فى مصر لهن وقد أشارت الآنسة جوليت بأن المدرسة لن تقوم لها قائمة إلا بالاعتماد على البنت المصرية نفسها ، وبالفعل زاد عدد تلميذات هذه المدرسة فى أواخر عهد محمد على حتى بلغت ستين تلميذة كلهن من المصريات^(١) .

ولما كان المجتمع ينظر إلى خريجات هذه المدرسة نظرة غير شريفة فقد أمر محمد على بخريجي مدرسة الطب العليا من الذكور بالزواج من خريجات مدرسة المولدات وكان يقام لذلك حفل كبير يلتقى فيه الأطباء بالمولدات ليختار كل واحد منهم واحدة من الخريجات وكان قرانهم يعقد جماعيا ، وبعد القران ينتقل كل زوجين إلى منزل هباته السلطات المصرية لحياتهما بالمجان مع منح كل من الزوجين دابة يستخدمها فى تنقلاته .

وكانت الطالبة تمنح عشرة قروش فى السنة الأولى تصل إلى خمسة وثلاثين قرشا فى السنة النهائية بالإضافة إلى الملابس^(٢) .

وهكذا فإن جهود محمد على ، ومحاولاته الإصلاحية البناءة ، ورغبته فى بناء مصر بناء عصريا - كانت ذات أثر بالغ فى تحقيق إتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، وفى إحداث المواجهة الفكرية بينهما .

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٩٦ .

(٢) عمر طوسون ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٩٥ - ٣٠٠ .

obeikandi.com

الفصل الخامس

الطهطاوى وتربية المرأة (١٨٠١ - ١٨٧٣)

تحدثنا فى الفصل السابق عن رافدين غربيين من روافد التجديد فى الفكر الإسلامى وتربية المرأة وسيلتين من سبل اتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، وهما الحملة الفرنسية بما صاحبها من تجديد فى الفكر وتحديث له ، والاتجاه التقدمى الذى أخذ به محمد على والذى كان له اثره فى احتكاك الفكر الإسلامى بالفكر الغربى ، وهنا سنتحدث عن الرافد الثالث من روافد التجديد وهو الأثر الذى أحدثه الطهطاوى فى الفكر الإسلامى والتمهيد للدعوة إلى تعليم المرأة وتربيتها ، وهذا الرافد الثالث هو قسيم لسابقه ولا يقل عنهما أهمية وخطورة فى خلق الأبعاد المختلفة التى شكلت الإطار العام لحركة التجديد فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر . فالطهطاوى يمثل دعامة أساسية من دعائم النهضة الفكرية الحديثة ، كما يعد الرائد الأول لحركة التأصيل الفكرى الحديث ، وذلك لما قام به من جهود مختلفة تركت بصماتها على الجوانب الفكرية لحياتنا الحديثة .

والحديث عن الطهطاوى لا يغنى الترجمة لحياته أو الإمام بالجوانب الشخصية المختلفة بل سيعنى فقط الإمام بالأمر التالية :

أولاً : مصادره الفكرية التى صدر عنها فى آرائه .

ثانياً : اتجاهاته واجتهاداته الفكرية .

ثالثاً : تربية المرأة .

مصادره الفكرية التى صدر عنها فى آرائه :

صدر الطهطاوى فى اتجاهاته الفكرية عن ثلاثة مصادر :

- الثقافة العربية الإسلامية .

- الثقافة الأجنبية .

- مشاهداته وانطباعاته .

الثقافة العربية الإسلامية :

فيما قبل الأزهر تولى تربية الطهطاوى أحواله فأتهم حفظ القرآن الكريم ، كما حفظ كثيرا من المتون المتداولة فى المعقول والمنقول ، كما أخذ يتلقى مبادئ العلوم فقرأ بعض الكتب فى الفقه والنحو . وجدير بالذكر أن أحوال الطهطاوى كان منهم العلماء فمنهم الشيخ أو الحسن الأنصارى الذى نظم متن النهج والقطر ، والشيخ فراج الأنصارى الذى تلقى التعليم بالأزهر ، والشيخ محمد الأنصارى وكان أمين الفتوى لمشيخة الأزهر فى عهد الشيخ حسن العطار .

أما فى الأزهر فقد وفد الطهطاوى إليه فى عام ١٨١٧ م وسنه يناهز السادسة عشرة ، ولم يدرك العام الدراسى من أوله ، لذا لم يسر فى دروسه على طريق واحد فأخذ يحضر دروسا متنوعة . وفى العام التالى بدأ ينتظم فى دروسه وكان ذا عزيمة قوية وصبرا على الدرس والتحصيل فألم بأصول الدراسة الأزهرية ، وتلقى العلم على أعلام شيوخ عصره مثل : الشيخ الفضالى الذى قرأ عليه صحيح البخارى ، والشيخ حسن القويسنى وقد تولى مشيخة الأزهر رغم كفاف بصره ، وقرأ عليه كتاب جمع الجوامع فى أصول الفقه ، وكتاب مشارق الأنوار فى الحديث ، والشيخ الدهوجى شيخ الأزهر وقد درس عليه شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، وكتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى وقد درسه على الشيخ البخارى . ودرس كتاب تفسير الجلالين على عبد الغنى الدمياطى المتوفى بمكة المشرفة ، ولازم الشيخ إبراهيم الباجورى الذى تولى مشيخة الأزهر وأخذ عنه شرح الأشمونى تفسير الجلالين أيضا ودرس على شيخ المالكية الشيخ محمد حبيش مفتى الليب . وجمع الجوامع فى الأصول وحضر شرح ابن عقيل على الشيخ الدمنهورى^(١) .

(١) أحمد أحمد بدوى ، دفاعه رافع الطهطاوى ، ط ٢ القاهرة : لجنة البيان العربى ١٩٥٩ ، ص ١٦ .

وكان أكثر الشيوخ تأثيراً في حياته الشيخ حسن العطار فقد جمع هذا الشيخ بين العلوم الدينية والدينية تلقى العلم على كبار المشايخ كالأمير والصبان ، كما تعلم مبادئ الهيئة والأسطرلاب . وقد أعجب بالعلوم العصرية التي وفدت مع الحملة الفرنسية فأخذ عنهم بعض هذه العلوم وعلمهم اللغة العربية ، وهو الذى قال « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » وكان يعجب مما وصلت إليه فرنسا من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة^(١) .

وقد ترك العديد من المؤلفات : فى الأدب مثل كتاب إنشاء العطار ، وله فى النحو منظومه وحاشية على شرح الأزهرية ، وله كتب أخرى فى الأصول والمنطق والهندسة والطب والتشريح وقد تولى مشيخة الأزهر من ١٨٣٠ - ١٨٣٤ م^(٢) .

وقد اتصل به الطهطاوى منذ دخل الجامع الأزهر ، وأحبه الشيخ لذكائه وجده وأحاطه برعايته ، وكان يشترك معه فى الإطلاع على الكتب العربية غير المتداولة فى الأزهر ، كما كان الطهطاوى يتردد على أستاذه فى منزله ويأخذ عنه دروساً فى التاريخ والجغرافيا والأدب . فكان للشيخ حسن العطار أبلغ الأثر فى توجيه الطهطاوى إلى المصادر الحقيقية للعلم والمعرفة وإلى الجمع بين العلوم الدينية والعصرية ، وعدم الخضوع لهذه الثنائية الثقافية التى شكلت خطأ فاحشاً فى مفهوم الثقافة والعلم فجعلت كل فريق يفرح بما لديه .

وقد وقفت أمه بجانبه تعينه على ضنك الحياة ، فباعت حليها وعقارها من أجل أن يتفرغ للعلم . وظلت هكذا حتى بلغ المراد من علمه ، على أنه كان يقوم أحياناً بمساعدة نفسه فكان يعطى درساً خاصاً كل يوم لحسين بك نجل المرحوم طبوزغلى كما كان يلقي بعض الدروس بمنزل محمد لاظ أوغلى ، وقضى الطهطاوى بالأزهر ثمانى سنوات كان فيها مرجع أخوانه يحل لهم ما غمض عليهم وكان أساتذته يثقون بفهمه وجودة قريحته . ولما أتم دروسه فى الأزهر أجازه شيوخه وسمحوا له بالتصدي للتدريس ، وكان آنذاك قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره فأقبل عليه الطلاب يتعلمون منه فى الحديث والمنطق ،

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٥٩٠ .

(٢) محمد عبد الله عثمان ، تاريخ الجامع الأزهر : ط ٢ ، القاهرة : مؤسسة الخانجي ١٩٥٨ م ،

والبيان ، والبديع ، والعروض ، وكان دقيقا حسن الأسلوب ، سهل التعبير وممن أخذ عنه الشيخ العزب مفتى المدينة المنورة^(١) .

وقد شهد له خاله الشيخ فراج الأنصارى بالعلوم والاجادة ، وكان قد استمع إليه وهو يقرأ « المعجم الوجيز فى أحاديث الرسول العزيز » وعلق على ذلك قائلا : لله درك يا بن الأخت لقد بلغت فى العلم درجة الأعلام ونلت بمساعدة اللغة مرتبة تقف دون وصفها الأعلام .

وظل الطهطاوى يلقى دروسه بالأزهر لمدة عامين ، وفى عام ١٨٢٤ م عين واعظا بالجيش ، وفى عام ١٨٢٦ م أختير إماما للمبعوثين الذين أوفدهم محمد على للدراسة والتخصص فى العلوم الحديثة .

وهكذا أخذ الطهطاوى يستعد للإستقاء من مصدر ثقافى جديد ، وهو المصدر الأجنبى .

ثقافته الفرنسية :

يمثل هذا المصدر المحو الأساسى للإتجاهات الفكرية الحديثة التى تبناها الطهطاوى ودعا إليها كما يمثل المنحنى الثقافى للتحول من الثقافة العربية إلى الثقافة الأوربية . وبهذا المصدر يتحقق التفاعل ما بين الفكر الشرقى المحافظ المنغلق والفكر الغربى المتحرر ، ليسفر هذا التفاعل عن الأخذ بأصول المدنية الحديثة فى ظل الروح الشرقية .

وبدافع من الوطنية والرغبة فى التجديد وتحقيق مواكبة الإسلام لضرورات العصر وتطوراته - أقبل الطهطاوى بكل شغف ونهم على قراءة الكتب الفرنسية فى شتى فنون المعرفة وكأنه أراد أن ينقل كل ما يراه إلى تربة مصر كي يزهر التطور فيها وينمو ، لقد قرأ فى النحو والأدب ، وفى التاريخ والجغرافيا ، وفى السياسة والقانون ، إلى غير ذلك من فنون العلم والمعرفة . قرأ فى النحو أجرومية « تومند » كما قرأ أجرومية أخرى على مسيو شواليه ، وكان معجبا بمنهج الفرنسيين فى النحو كما اتضح ذلك فى كتاب المستشرق الفرنسى « دى ساسى » التحفة السنية فى علم العربية^(٢) .

(١) صالح مجدى (تحقيق جمال الدين الشيال) حلية الزمن ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) رفاعه الطهطاوى ، تخلص الإبريز (تحقيق عمود نهى حجازى) القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٤ م ، ص ٢٢١ .

وفى الأدب قرأ مجموعة « نويل » وديوان « روسو » وفى التاريخ والجغرافيا قرأ كتاب سير فلاسفة اليونان وأساطيرهم ، وسيرة نابليون وغير ذلك ، كما قرأ كتابا يسمى بانوراما العالم .

ومثل هذه الدراسات كانت جديدة كل الجدة على أزهرى مثله يرى تناول التاريخ ومزاولته ضربا من الإثم والرجم بالغيب ، فقد يعرض ذلك التاريخ للخوض فى سير الصحابة وربما الإنتقاص من قدرهم ، كانت هذه الدراسة جديدة على أزهرى يرى فى الجغرافيا ضربا من الالحاد والزندقة ، فمن الأمور التى تقول بها الجغرافيا كروية الأرض وهذا ما لا يمكن التصديق به .

ولقد أعجب الطهطاوى بهذه الدراسات فأكتب عليها دارسا ثم ناقلا لها ومترجما ، وكان مما ترجمه كتاب « التعريبات الشافية لمريد الجغرافية » .

وفى السياسة والقانون اهتم أيما اهتمام بالكتب التى تعالج ذلك لقد عاش بالشرق ووقف على ما بأنظمتة السياسية من مساوئ وعيوب وعلى ما اتصف به حكام الشرق من ظلم وإستبداد ، لذا عنى عناية بالغة بنقل هذا الفكر السياسى والقانونى إلى اللغة العربية عله يكون شعاعا يكفل لأبناء الشرق الرؤية الواضحة للحياة من حولهم والحث على العودة إلى الإسلام فى منابعه الصافية الأولى .

ومن الكتب التى قرأها فى هذا الصدد كتاب « مونتسكيو » روح الشرائع وقد قام بترجمة دستور فرنسا وأصول الحقوق الطبيعية إلى الفكر العربى^(١) آملا أن يغير هذا الفكر الغربى من حياة وطنه وأسلوب حياته ونظام الحكم .

مشاهداته وانطباعاته :

ليست الثقافة قراءة فقط وعزلة داخل عام الكتب ، بل إن المشاهدة المباشرة والمعايشة الفعلية للحياة ، وممارسة ألوان النشاط المختلفة وخوض التجارب العديدة - كل أولئك يمثل مصدرا مهما من مصادر الثقافة . ولا يشك أحد فى أن الرحلات والاحتكاك بالشعوب الأخرى يغير من فكر الإنسان وسلوكه .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

والطهطاوى قد أفاد أيما إفادة من هذا المصدر ، وقد ساعده على هذا احساس مرهف ورغبة جارفة فى المعرفة ، وقوة ملاحظة وحضور بديهية تمكنه من الربط بين الأشياء المتفرقة والوقوف على ما هو خلف الشكل والمظهر ، والتأمل فيما يجرى حوله لمعرفة أسرار موضوعاته ، ولقد كان كتابه « تخلص الإبريز » تجسيداً حياً لكل هذه المشاهدات وصورة صادقة للملاحظات الطهطاوى وتأملاته ، وهو فى كل هذه الملاحظات والإنطباعات لم يكن لينسى أبداً وطنه بل كانت دائماً تقفز صورته إلى ذهنه عندما يرى شيئاً جديداً فيأخذ فى المقارنة بين ما رآه فى وطنه وما يشاهده هنا فى فرنسا من رقى وتطور .

وما يهمنا من هذه الملاحظات العميقة هو ما يتصل بموضوع بحثنا وهو :

١ - الحالة العلمية فى فرنسا .

٢ - المرأة الفرنسية .

الحالة العلمية فى فرنسا :

وعن الحالة العلمية ذكر الطهطاوى أن العلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهى دائماً فى زيادة فلا تمضى سنة إلا ويكتشفون شيئاً جديداً ، ويتحدث عن مجامع العلماء والمدارس المشهورة وخزائن الكتب ، ومن خزائن الكتب الخزانة السلطانية وفيها سائر ما أمكن للفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم ، وعدد ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد ، ومن خزائن الكتب أيضاً الخزانة خزانة « مسيو » وتسمى خزانة الأرسنال وبها نحو مائتى ألف مجلد مطبوعة وعشرة آلاف منسوخة ، ومنها خزانة مزارينه وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة وأربعة آلاف منسوخة وفيها خزانة الانسليطوت أى دار العلوم وفيها خمسون ألف مجلد ومنها خزانة المدينة وهو نحو مئة عشر ألف مجلد ، ومنها خزانة يستان النباتات وفيها عشرة آلاف مجلد ، وفيها خزانة الرصيد السلطانى وبها كتب علم البهية ، وفيها خزانة مكتبة الحكمة ، وفيها خزانة اكدمه الفرنسيس وهى خمسة وثلاثون ألف مجلد وكل هذه خزائن موقوفة . ويقول :

فى باريس كثير من الخزائن التى يقال لها خزائن المستقرات .

ويتحدث عن كثير من الجمعيات العلمية ومنها جمعية الفيلوماتيه ، وجمعية حسن الدروس ، والجمعية الأسبانية ، والجمعية الجغرافية ، والجمعية الفرماطينية ، وجمعية

المولعين بالكتب الخزائنية ، وجمعية الخطاطين ، وجمعية المغناطيسية الحيوانية ، وجمعية حفظ آثار القدماء ، والجمعية السلطانية فى علوم الفلاحة ، وجمعية تحسين الأصواف .

وعن المدارس يتحدث عن المدارس السلطانية التى تسمى الكوليج ، وهى مدارس يتعلم فيها الإنسان العلوم المهمة التى تكون وسائل الأمور المقصودة منها .

ويتحدث عن المكاتب مثل مكتب الفروع الفقهية ، ومكتب الغناء السلطانى ، ومكتب اللغات الشرقية ، ومكتب الأريفلوغى ، ومكتب تعليم النباتات والمعادن ومكتب طب البهائم ، ومكتب الصم والبكم ، ومكتب العميان السلطانى .

وتوجد البنسيونات وعددها حوالى مائة وخمسين بنسيونا ، وفيها يتعلم الصغار الكتابة والقراءة والحساب والهندسة وغير ذلك .

وتوجد الجرسونات ، والدفاتر السنوية ، كما توجد أوض القراءة ومما يهر العقول فى باريس دكاكين الكتب وخاناتهم وتجارات الكتب^(١) .

وما ذكره الطهطاوى يوضح لنا إلى أى مدى كان معنيا بالحركة العلمية فى شتى جوانبها . ولعل عنايته بهذه الحركة هى التى أوحى إليه بفكرة تأسيس مدرسة الألسن باعتبارها نواة لحياة ثقافية جديدة فى مصر تتلاءم مع تطورات العصر واتجاهاته .

المرأة الفرنسية :

يتحدث الطهطاوى عن مكانة المرأة الفرنسية وموقف الرجل منها فيقول « ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء وتمت أمرهن سواء كن جميلات أم لا . قال بعضهم إن النساء عند الحمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلّعين ولا يظن الافرنج بنسائهم ظناً سيئاً أصلاً مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فإن الإنسان ولو من الأعيان قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب إقامة دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بمحجج قوية على رؤوس الأشهاد ، وتتلوث فيها الذرية بالفضيحة وإن كانت بدون لعان ولا تعرض للأولاد ، وهذا يقع كثيراً فى العائلات الكبيرة^(٢) .

(١) تخلص الإبريز (الفصل الثالث عشر : فى ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

وفى موضع آخر يقول : « إن باريس جنة النساء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيل ، وذلك أن النساء بها منعمات سواء بما لهن أو بجمالهن ، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء ، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ، وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلاً ونهاراً على أحجار أرض باريس خصوصاً إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة^(١) .

ويوضح « الطهطاوى » مظهراً من مظاهر احترام الرجل للمرأة فيذكر أنه فى أماكن الرقص التى تسمى « البال » تجلس النساء ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكفت النساء ، وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن ثم كرسي خال قام لها الرجل وأجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها فالأنثى دائماً فى المجالس معظمة أكثر من الرجال ثم إن الإنسان إذا دخل بيت صاحبه فإنه يجب عليه أن يحبى صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما أمكن ، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت^(٢) .

الاختلاط بين الرجل والمرأة :

ويتحدث الطهطاوى عن الاختلاط بين الرجل والمرأة فيذكر أنه يحدث فى الأماكن العامة بالمقاهى والبارات والمراقص فيقول : « ونساء الفرنسيات بارعات الجمال واللطافة حسان المسايير والملاطفة ، يتبرجن دائماً بالزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال سواء الأحرار وغيرهن ، خصوصاً يوم الأحد الذى هو عيد النصرى ويوم بطالتهم^(٣) .

ويقول « من المنتزهات المحال المسماة البلوار وهى الأشجار المتصاففة المتوازية وبه أيضاً تدور النساء اللواتى يتعرفن بالرجال سيما بالليل فهو فى جميع الليالى وفى ليلة الاثنين يحوى كثيراً من الناس فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ، ذراعاً فى ذراعها إلى نصف الليل^(٤) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦١ .

المرأة والرقص :

ويتحدث عن الرقص كمجال من مجالات نشاط المرأة - فيذكر أنه فن من الفنون يهدف إلى موازنة الأعضاء ، ووقع بعضها إلى بعض وهو يغاير الرقص فى مصر لأن الرقص فى مصر يهدف إلى التهييج وإثارة الشهوات . وأما فى باريس فإنه نمط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً ، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا ، وسواء يعرفها أو لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ولا يكفیهن واحد ولا اثنان بل يحين رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسأمة أنفسهن من القلق بشيء واحد ... وقد يقع فى الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الإنسان ويده فى خاصرة من ترقص معه ، وأغلب الأوقات يمسكها بيده ، وبالجمله فمس المرأة أيا ما كانت فى الجهة العليا من البدن غير معيب عند هؤلاء النصارى ، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب^(١) .

- المرأة والسفور والزى :

يتحدث الطهطاوى عن السفور والزى فيذكر أن عادة نساء هذه البلاد هى كشف الوجه والرأس والنحر وما تحته والقفاء وما تحته واليدين إلى قرب المنكبين ، ويذكر أن ملابس النساء لطيفة بها نوع من الخلاعة خاصة إذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى فإن حليهن المذهب فى آذانهن ونوع من الأساور المذهب يلبسنه فى أيديهن خارج الأكمام ، وعقد خفيف فى أعيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبداً ، ولبسنهن فى العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو الشيت أو البفت الخفيف ، ولهن فى البرد شريط فروه فيضعنه على رقابهن ويرخين طرفيه كالمآزر حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين .

وهن يحتترمن بحزام رفيع فوق ثيابهن حتى يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كئيفا .

ومن عادات النساء فى اللبس أيضا أنهن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن إلى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائما معتدلاً لا أعوجاج فيه .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

ومن الأشياء التي لم يستحسنها الطهطاوى عدم ارخاء الشعر فهن يجمعن الشعر فى وسط الرأس ويضعن فيه دائما ونحوه .

وفى أيام الحر يكشفن الأشياء الظاهرية من البدن فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدي حتى إنه يمكن أن يظهر ظهرهن وفى ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن ، ولكن لا يمكن كشف الساقين بل هن دائما لابسات للشرابات .

ويقول إنه من المتداول عند الفرنسيات استعمال الشعور العارية ، وإنه من الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة^(١) .

المرأة ومسألة العفة :

وفيما يتصل بالزنى والاختلاط مسألة العفة فيذكر أن العفة لا تأتي من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والالتصام بين الزوجين .

ويذكر أنه فى فرنسا تستولى العفة على قلوب النساء المنسوبات إلى المرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهن الشبهة كثيرا ويتهمن فى الغالب^(٢) .

غير أن مفهوم العفة ليس بالمعنى الذى ألفناه ، فالطهطاوى يذكر فى موضع آخر أنه من خصائصهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسايتهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة يمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة ، ومما قاله أهل المجون الفرنسية « لا تغتر بابا » امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها^(٣) .

المرأة والعمل :

والمرأة الفرنسية تشارك فى العمل فيقول الطهطاوى : والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء وأما الأشغال فهى للرجال^(٤) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

ويذكر أن أول ما وقع عليه بصره هو قهوة عظيمة والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة ، فالمجتمع الفرنسي أتاح للمرأة أن تعمل وتشارك فى الدخل والإنتاج .

المرأة والعلم :

وعن الناحية العلمية للمرأة : يذكر أن للنساء تأليف عظيمة ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغربة ، ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال ، « جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها » ، لا يلقى بتلك البلاد فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة قريحتها وفهمها وعن معرفتها^(١) .

ويقول الطهطاوى إن هناك مدة من السنة تسمى مدة التعطيل أو مدة الفراغ ، والنساء خلال هذه الفترة يسافرن وحدهن أو مع رجل يتفق معهن على السفر وينفقن عليه مدة مقره معهن ، لأن النساء أيضا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها ، أو ليس أنه قد يأتى معهن من بلاد الافرنج إلى مصر ليرى غرائبها من الأهرام ، والبرابى وغيرها ، فهن كالرجال فى جميع ٢ الأمور^(٢) .

وبهذا صحح الطهطاوى تلك الصورة التى سجلها الجبرتى للمرأة الفرنسية فقد وصفها بالمجون والخلاعة عندما شاهدها تسير مع الرجل متبرجة فى الشارع أو فى المنزلة متجاهلا تلك المزايا العديدة التى منحها التطور للمرأة الفرنسية .

وفى ضوء هذا أيضا بالإضافة للمصادر الأخرى - حدد صورة المرأة المسلمة العصرية فى كتابه « المرشد الأمين » الذى سنعرض له .

وأيه فى المرأة الفرنسية :

أعجب الطهطاوى بالمرأة الفرنسية فى كثير من جوانبها ، وخاصة جانب تعليمها وثقافتها . وقد كان إعجابه بها حافزا له على رسم الصورة الصحيحة للمرأة المصرية المسلمة .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

نقد أعجب بهذه المنزلة الكريمة التي تتبوأها المرأة الفرنسية لدى الرجل وأعجب باهتمام الرجل وتقديره لها ، والنظر إليها نظرة المساواة فهي لها من الحقوق ما له وعليها ما عليه من الواجبات ، وفي ظل الاحترام المتبادل تتوفر السعادة للأسرة ، ويتحقق النهوض للمجتمع .

كذلك فإن الطهطاوى فى ضوء هذه الصورة للمرأة الفرنسية قد ارتضى الاختلاط الذى تمليه ضرورة الحاجة للعمل ، وتدفع إليه حتمية المساهمة والمشاركة من أجل الكسب المادى وبهدف التخفيف من أعباء الحياة الإقتصادية .

ولم يعترض الطهطاوى على عمل المرأة بل جعل العمل غاية من الغايات التى يهدف إليها تعليم المرأة ، ورأى أن التعليم سلاح يجب أن تزود به المرأة من أجل الإبقاء على كرامتها وإنسانيتها .

ولم يقف الطهطاوى موقف الجامد أو المترمت إزاء سفور المرأة وإنما نفذ إلى صلب الهدف وهو الحفاظ على العفة ، وليست هذه العفة مرتبطة بستر الجسم أو كشفه بل هى مرتبطة بحسن تربية المرأة وإعدادها إعداداً سليماً .

كذلك أعجب الطهطاوى أيما إعجاب بثقافة المرأة الفرنسية والمأماها بالمعارف المختلفة وأن جمالها إنما هو فى عقلها لا فى لسانها .

ولكن الطهطاوى لم تبارحه أبداً روحه الإسلامية الشرقية فهو لم يقر ما كان يراه فى حياة المرأة الفرنسية من تبرج وإ انحلال بمخالطة الرجال والتردد على مجالس اللهو والمجون .

اتجاهاته واجتهاداته الفكرية :

بعد أن تحدثنا عن مصادر الطهطاوى الفكرية ، نتحدث الآن عما أسفرت عنه هذه المصادر وما أدت إليه من اتجاهات . وحديثنا عن هذه الاتجاهات الفكرية السياسى منها والإقتصادى والإجتماعى - إنما سيكون من منظور الفكر الإسلامى فى صلته بتربية المرأة المصرية ، ذلك إن الفكر الإسلامى يعنى إستيعاب روح العصر وتطوراتها فى إطار المبادئ العامة التى قررها الإسلام ووضعها للحياة كتشريع ودستور ، لذا كانت المرونة أساساً للفكر الإسلامى وأحد مصادره الذى يستمد منه وجوده ، ولذا كان الإجتihad أبرز سمة عرف بها الفكر الإسلامى ، فهو أداة الطوعية والتطور وسبيل ملاحقة الحياة بل ومواكبتها فى أحداثها المتغيرة .

والطهطاوى عندما يغطى بفكره هذه المجالات المختلفة فإنه بذلك يمهد السبيل أمام المفكرين المصريين ويشير فيهم روح التجديد والتطوير ، ويدفعهم إلى محاولة فهم العصر فى ظل الإطار الإسلامى العام بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية .

ولم يكن للفكر الإسلامى أن يقف عند جانب معين من جوانب الحياة ، بل هو يمتد ليشمل كل جوانبها وأبعادها ، إن الطهطاوى بفكره هذا الذى يقرره وينادى به ويعمل على ترسيخه - ليمثل هزة عنيفة فى تلك العقول الجامدة الضيقة ، كما يمثل دعوة إلى طلاقة الفكر ورحابة الأفق ، وتربية المرأة إن هى إلا مظهر حى لنشاط الفكر الإسلامى الشامل ومثل واضح لحيوته ومرونته .

وتتمثل الإتجاهات التى ستناولها فى الآتى :

- ١ - الإتجاه السياسى .
- ٢ - الإتجاه الاقتصادى .
- ٣ - الإتجاه الاجتماعى .
- ٤ - الإتجاه التربوى .

الإتجاه السياسى :

عرض الطهطاوى لهذا الإتجاه فى أكثر من كتاب ، لقد تناوله فى كتاب « تخلص الإبريز » وفى كتاب « مناهج الأبواب » وفى كتاب « المرشد الأمين » .

وهو فى تناوله لهذا الإتجاه قد يكون مقصده الحديث عن السياسة أو الإدلاء ببعض التعليقات على ما يرويه من سياسة الدول .

لقد كان الطهطاوى ميالا إلى النظم الحرة والأخذ بالأسلوب الديمقراطى وتطبيق مبدأ سيادة القانون ، ولعل هذا ما دفعه إلى ترجمة دستور فرنسا وما أدخل عليه من تعديلات حتى يطلع أبناء وطنه على الصورة الصادقة لما يجب أن يكون عليها الحكم .

وفى هذا الإتجاه تحدث عن :

النظرية السياسية - الحقوق المدنية .

النظرية السياسية :

يرى الطهطاوى أن الدولة تقوم على ركنين أساسيين هما الحاكم والمحكوم ، والعلاقة بينهما هي العلاقة المكونة للدولة باعتبارها نظاماً سياسياً . ووجود النظام السياسى ضرورة حضارية فلا تستقيم الحياة فى المجتمع الإنسانى دون وجود سلطة حاكمة ، ووجود هذه السلطة أساس انتظام العلاقات بين الأفراد فى الدولة ، فهو يقول « لولا ولى الأمر لما قدر العالم على نشر علمه ، ولا الحاكم الشرعى والسياسى على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ، ولا الصانع على صناعته ، ولا التاجر على تجارته ، ولولاه لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور »^(١) .

وفى تحليله لطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم يرى أنها يجب أن تنظم فى ظل الدستور ، فالفرد كما رأى « روسو » تنازل عن جزء من حريته من أجل نظام الجماعة ، وقد وجد الطهطاوى فى الميثاق الدستورى الفرنسى منهجا لتحقيق العدالة رغم أنه ليس من كتاب الله ولا سنة رسوله ، وقد أثبت أن الأصول العامة لهذا الميثاق لا تناقض الأصول العامة للحكم الإسلامى يقول « من زاول علم أصول الفقه ... جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدنية إليها وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدينهم وأحكامهم قل أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية ، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية ، وهى عبارة عن قواعد عقلية نحسبها وتقيحها يؤسسون عليها أحكامهم المدنية ، وما نسميه بفروع الفقه عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعيرون عنه بالحرية والتسوية »^(٢) .

وكان الطهطاوى من أوائل الذين كتبوا باللغة العربية عن أنواع الحكومات فذكر الحكومة المونارخية أى واحدة الحاكم ملوكية كانت أو سلطانية ، وذكر الحكومة الجمهورية وكان أول من استخدم مصطلح الديمقراطية^(٣) .

(١) رفاعه الطهطاوى ، سناجج الألباب ، ص ٢٣٢ .

(٢) رفاعه الطهطاوى ، المرشد الأمين ، ط ١ ، القاهرة : مطبعة المدارس الملكية : ١٢٨٩ هـ ، ص ١٢٤ .

(٣) محمود فهسى حجازى ، أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ، القاهرة : الهيئة العامة للكتاب .

وتحدث عن أنواع السلطات فذكر أن هناك سلطات ثلاثاً : السلطة التشريعية وهي سلطة تقنين القوانين وتنظيمها ، والسلطة القضائية التي تشرف على تنظيم هذه القوانين ، والسلطة التنفيذية وهي التي تتولى تنفيذ القوانين ، وكل السلطات ترجع إلى رئيس الأمة باعتباره القوة الحاكمة العمومية ، وذكر أن الحاكم يستمد نفوذه من الشعب ، فالشعب هو صاحب التفويض .

الحقوق المدنية :

تحدث الطهطاوى عن الحقوق المدنية وعرفها بأنها حقوق أهالى المملكة الواحدة بعضهم على بعض ، وهي حقوق ليست منحة من الدولة بل حقوقاً تضامنية بين المواطنين لحفظ أملاكهم وأموالهم ومنافعهم ونفوسهم وأعراضهم وما لهم وما عليهم محافظة ومدافعة ، والحقوق المدنية تشمل : المساواة - الحرية .

المساواة : وهي تعنى عند الطهطاوى المساواة أمام القانون مهما كانت المكانة الاجتماعية ، فالكل أمام القانون سواء فى الحقوق والواجبات .

الحرية : وهي فى رأيه أساس الحقوق جميعاً ، وهي تنقسم إلى خمسة أقسام : حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية .

ويقصد بالحرية الطبيعية تلك الحرية التى خلقت مع الإنسان وانطبع عليها ، وبالحرية السلوكية تلك التى تعنى بحسن السلوك ومكارم الأخلاق ، والحرية الدينية يقصد منها حرية العقيدة والرأى والمذهب بشرط ألا تخرج عن أصل الدين ، والحرية المدنية يقصد بها حقوق العباد والأهالى الموجودين فى مدينة بعضهم على بعض ، فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالى المملكة تضامنت وتواطأت على أداء الحقوق بعضهم لبعض ، وأن كل فرد من أفرادهم ضمن للباقي أن يساعدهم على فعلهم كل شئ لا يخالف شريعة البلاد وأن لا يعارضوه . والحرية السياسية أى الدولية يقصد بها تأمين الدولة لكل واحد من أهالى البلد على أملاكه الشرعية المرعية وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى جزء منها .

والحرية بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك^(١) .

(١) رناعة الطهطاوى ، المرشد الأمين ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

والإتجاه السياسى هذا الذى أختطه الطهطاوى كان نواة لدعوات الإصلاح فيما بعد وخاصة دعوة إصلاح المرأة ، وذلك بمساواتها بالرجل وتمتعها بحقوقها السياسية فى ظل المبدأ العام للحياة السياسية وهو مبدأ الديمقراطية ، والإيمان بحق كل مواطن رجلا كان أو امرأة فى إبداء الرأى فى السياسة التى تنتهجها الدولة والمشاركة فى تنفيذها ، والإعتراف بدور المرأة فى النهوض والإرتقاء بالمجتمع .

وعليه فقد كان على التربية أن تأخذ بهذا الإتجاه فتضع ضمن أهدافها تربية المرأة تربية ديمقراطية وإعدادها للحياة الحرة الكريمة بدل أسلوب البطش والكبت والإرهاب التى عانت منه المرأة كثيرا فى العصر العثمانى والذى حال بينها وبين التعليم .

فالطهطاوى عندما كان ينقل هذا الفكر السياسى الغربى ، وعندما كان يبدل هذه الجهود الضخمة فى النقل والترجمة ، فإنما كان يبصر الشعب بحقوقه السياسية غير متجاهل لدور المرأة وقدرتها على المشاركة والمساهمة . إنه وضع البذرة السياسية وترك لمن أتى بعده أن يتعهد هذه البذرة بالعناية والرواء حتى تثمر حياة سياسية ديمقراطية سليمة فالنشاط السياسى الذى تمارسه المرأة المصرية اليوم يرجع فى جذوره الأولى إلى فكر الطهطاوى الذى استوحاه من الفكر الإسلامى أولا والفكر الغربى الذى أثار إعجابه وحماسته للنهوض ثانيا .

الإتجاه الاقتصادى :

فى هذا الإتجاه إهتم الطهطاوى بقضية العمل ورأس المال وبالعلاقة بين الإنتاج والخدمات وبدور الدولة فى الحياة الاقتصادية .

بالنسبة لقضية العمل ورأس المال يرى أن العمل ورأس المال هما دعائما الإنتاج ، فإذا كانت ثورة الأفراد تقاس بما يملك كل منهم فإن الثورة العامة لا توجد إلا بالعمل ، فالعمل هو القيمة المضافة إلى رأس المال الدائم وهو سر تمايز الدولة على دولة أخرى ، فقد تتوفر الإمكانيات لدى الدولة لكنها تكون متخلفة لأنها لا تعمل ، فمنع الثروة والغنى هو العمل .

والطهطاوى حين يتحدث عن رأس المال فهو لا يقصد به جمع الثروة لذات الجمع بل جمع الثروة من أجل زيادة الإنتاج .

بالنسبة للعلاقة بين الإنتاج والخدمات فهو يرى أن الإنتاج يتوقف على العمل وهو دالة التقدم الحضارى ، أما الخدمات فلا تعد من الأعمال الإنتاجية وإن كانت ضرورية لتنظيم العمل الإنتاجى .

وعن دور الدولة فى الحياة الاقتصادية يرى أن الدولة الحديثة لم تنشأ إلا بعد إنهيار النفوذ الاقطاعى ونهاية نظام الإلترام ، وأوضح الطهطاوى رأيه فى هذا يبحث طبيعة العلاقات الاقتصادية السائدة فى ظل نظام الاقطاع وأثرها على إنهيار هذا النظام من آثار بالنسبة للأفراد أو الدولة ، يقول الطهطاوى : « وفى الأزمان السالفة قبل تقدم الجمعية فى البلاد الأوربية وقبل أخذها من التمدن بالحظ الأوفر .. كان أكثر أهالى حكومتها ملتزمين وأمراء كبارا مستغلين بتملك الدوائر البلدية والأراضى الزراعية يملك الواحد منهم القسم بتمامه ويستبد فيه برأيه ، وتنفيذ أحكامه ، ويدفع خراجا مقررًا لرئيس الحكومة الكبيرة ... مثلما كان جاريا بالديار المصرية فى عهد المماليك^(١) .

إن ما قرره الطهطاوى من آراء اقتصادية تتناول رأس المال والعلاقة بين الإنتاج والخدمات ، ودور الدولة فى الحياة الاقتصادية - كان شعاعا بصر من جاء بعده بالطريق فقد أخذ المصلحون فيما بعد يتنادون بخروج المرأة لساحة العمل خاصة وأن التطور الحديث وما نجم عنه من أعباء ومشاكل اقتصادية كان لها أثرها فى حياة الأسرة والمجتمع - قد أُملى على المرأة أن تساهم بقدراتها وإمكاناتها ، وألا تكون نصفًا مشلولًا فى كيان المجتمع .

ولقد ذكر الطهطاوى - فى ضوء ما رآه فى فرنسا - حق المرأة فى العمل ، وقد سبق أن قلنا أن العامل الاقتصادى فيما مضى كان سببا فى تخلف المرأة وإعاقتها عن التعليم .

لكن المرأة اليوم قد تخلصت من القسر الاقتصادى فتحررت إرادتها وملكت أمر نفسها وأكدت ذاتها ، فغشيت كل مجالات العمل عن طريق تعليمها وثقيفها ، وأصبحت قادرة على أداء دورها - فى حدود طاقتها - إزاء أسرتها وإزاء مجتمعها .

(١) رفاة الطهطاوى ، مناهج الألباب ، عمدة عمارة ، الأعمال الكاملة ، الجزء الأول ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

وهكذا فإن الفكر الاقتصادى الذى حدد معالمه الطهطاوى كان فكرا غريبا داخل إطار إسلامى ، وكان إجتهدا رائدا للتوفيق بين ما يقرره الإسلام فى مبادئه الاقتصادية العامة وبين منطق العصر كما رآه فى فرنسا .

الإتجاه الاجتماعى :

تناول الطهطاوى فى هذا الإتجاه النقاط التالية :

التطور الاجتماعى :

عرض الطهطاوى لقضية التطور الاجتماعى تحت اسم « التمدن » مدفوعا إلى ذلك بضرورة تغيير الشرق ، ولم يحاول أن يتصور مصر أو الشرق قطعة من أوربا بل حاول أن يتبين الأسس الحضارية التى يمكن الاستفادة منها .

وهو يرى أن التقدم يعتمد على جانبين : التقدم المادى ، والتقدم المعنوى ، ويقصد بالتقدم المادى التقدم فى المنافع العمومية والصناعة والتجارة ، وهو جانب له أثر واضح فى تغيير الحياة الاجتماعية وتطور المجتمع ، ويقصد بالتقدم المعنوى التمدن فى الأخلاق والعوائد والتمسك بالدين والشرعية ، وللدين هنا وظيفة سلوكية تحقق السلوك الحضارى للفرد .

وواضح هنا أن الطهطاوى يفسر التطور الاجتماعى فى ضوء الجوهر الحقيقى للإسلام ، فالإسلام عقيدة وشرعية ، عقيدة معنوية توجه السلوك وشرعية تجسد العقيدة وتجعلها واقعا حيا .

ويؤكد الطهطاوى ضرورة تكامل الجانبين وتلازمهما ، وهذا ما تدعمه الدراسات الحديثة فالثقافة جانبان أحدهما مادى والآخر معنوى ويرى « أوجيرن » أن الثقافة من حيث المحتوى تشمل القسم المادى أى التاج المادى للإنسان ، والقسم اللامادى الذى يشمل العادات والتقاليد والأخلاقيات والأفكار ، والملاحظ أن العنصر المادى والعنصر اللامادى للثقافة يتفاعلا معا .

وهناك فرق أساسى بين التمدن بإعتباره تغيرا حضاريا وبين تغيير الزى أو المظاهر الخارجية لحياة الأفراد بإعتبارها عرفا والتمدن ليس فى عرف الملابس بل هو فى الجانبين المادى والاقتصادى والمعنوى السلوكى .

دور الفرد فى التقدم الحضارى :

يؤكد الطهطاوى على أهمية الدور الإيجابى للفرد فى التطور الحضارى ، فالواجب على كل فرد أن يعين الجماعة بقدر الإستطاعة ويبدل ما عنده من رأس مال البضاعة لمنفعة وطنه ، ويرفض الطهطاوى السلبية فيقول : « ليست الفضائل إعداما بل هى أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم ، وفى المعاملات ، وضروت الاجتماعات ، السخاء فرع من وجود مال بيد الإنسان إستفاد بالمخالطة حسن صرفه فى الخير .

وينادى الطهطاوى بمبدأ التكافل الاجتماعى فإذا كان هناك من أعضاء المجتمع من لا يقوى على الكسب لمرض أو شيخوخة فإنه من الواجب أن توجد مؤسسات تنهض بسد حاجات هؤلاء والقيام بشئونهم ، وهنا يرى أن الدولة وحدها لا تستطيع القيام بهذا العبء ، ولذا يجب أن يعينها على الواجب جمعيات الأغنياء وأهل الميسرة .

التركيب الطبقي :

ويتحدث عن التركيب الطبقي فى خاتمة كتاب مناهج الألباب ، فيقسم أهل الوطن إلى أربع طبقات : الطبقة الأولى ولادة الأمور ، والطبقة الثانية طبقة العلماء ، والطبقة الثالثة الغزاة ، والطبقة الرابعة أهل الزراعة والتجارة والصناعة ، وقد تحدث عن عمل كل طائفة وواجباتها وحقوقها وصفاتها ، ودعا إلى ضرورة التعاون بين كل الطبقات من أجل مصلحة الوطن .

هذا الإتجاه يمثل البعد الثالث للإتجاهين السابقين ولقد كان أيضا مصدرا لدعوات الإصلاح الاجتماعية الخاصة بالمرأة ، فدور الفرد فى المجتمع وضرورة التعاون بين طبقات المجتمع والعمل على تقدم المجتمع والنهوض به - كلها محاور دارت عليها هذه الدعوات .

ولا يستطيع أحد أن ينكر دور المرأة فى المجتمع وهى التى تبنى الجيل وتصنع الرجال بالإضافة إلى دورها فى الحياة العامة ووقوفها جنبا إلى جنب مع الرجل تخفف من أعباء الحياة الاقتصادية وتشارك فى البناء والرقى .

كذلك أيضا فإن التطور قد فرض ضرورة التعاون بين طبقات المجتمع فلا يمكن أن تسير الحياة سيرتها الطبيعية وأن يتحقق الرقى بدون التعاون بين الرجل والمرأة ، فالمرأة تشكل نصف المجتمع وتعطيل طاقتها هو إضعاف لطاقة المجتمع وسلب لقواه .

والمرأة اليوم تستطيع بتربيتها وتعليمها أن تؤدي العديد من الخدمات الاجتماعية كمحو الأمية وتنظيم الأسرة ومزاولة التمريض وغير ذلك من الخدمات التي تعمل على النهوض بالمجتمع والرقى به .

فإتجاه الطهطاوى الاجتماعى كان - إذا - نواة للنهضة الاجتماعية التى نشاهد آثارها اليوم ، ولقد كان إتجاهها قائما على التوفيق بين الفكر الغربى وما حققه من تطور وبين المبادئ الإسلامية الاجتماعية السامية التى تخلت عنها الحكومات الإسلامية فى عصورها المتأخرة حتى ضعف المجتمع وتخلف المسلمون .

الإتجاه التربوى :

لا يمكن القول بأن للطهطاوى - نظرية متكاملة فى التربية ذات أسس فلسفية متماسكة أو ذات أبعاد فكرية متناسقة ومترابطة ، وغاية ما يمكن قوله أن آراء فى التربية تعكس ملاحظاته العديدة وقراءاته المتنوعة وهذه الآراء وإن كان يعوزها الترابط ويتقصها التماسك إلا أنها آراء قد تتصف بالعمق وبعد النظر فى مجملها .

على أنه يمكن تصنيف هذه الآراء المختلفة ونظم شتاتها فى الآتى :

١ - مفهوم التربية .

٢ - فلسفة التربية وهى تضم النقاط التالية :

مفهوم الطبيعة الإنسانية - الأهداف التربوية العامة - أنواع التربية .

٣ - نظام التعليم ويشمل النقاط الآتية :

النظام التعليمى والمجتمع - مراحل التعليم - تأنيث التعليم - التغذية .

٤ - الميول والإستعداد ويشمل الآتى :

التربية والذكاء - الإستعداد ومبدأ النواب والعقاب - أثر التنافس فى التحصيل

- العلاقة بين المعلم والمتعلم .

مفهوم التربية :

عرف الطهطاوى التربية بأنها فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية وطريق تهذيب النوع البشرى ذكرا كان أو أنثى على طبق أصول معلومة يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها ويتخذها عادة وتصير له دأبا وشأنا وملكة^(١) .

وما نلاحظه فى هذا التعريف أنه أطلق على التربية مصطلح « فن » لا علم ، والفرق بين المصطلحين له دلالة البارزة ، إذ الفن عمل وممارسة ، أما العلم فهو أسس وقواعد ، والتربية ليست علما فقط بل هى فى المقام الأول فن وخبرة ودراية تتطلب إستعدادا معيناً وقدرات خاصة فليس كل عالم مرياً وليس كل علم تربية ، فالتربية عملية متكاملة ينضج من خلالها الفرد فى جوانبه المختلفة الحسية والعقلية والإنفعالية .

كما نلاحظ أيضا فى هذا التعريف استيفاء لأبعاد التربية الحسية منها والعقلية والشعورية ، وهذا ما تتادى به كتب التربية الحديثة وعندما نتحدث عن الخبرة فنحن نتحدث عنها بإعتباره الموقف المتجدد المستمر الذى يراعى فيه جوانب الفرد المختلفة ، والخبرة المربية هى التى تكفل نمو هذه الجوانب .

ونلاحظ أيضا فى التعريف أن للتربية أصولها المعلومة التى تناول المنهج والمعلم والمتعلم . ونلاحظ فى التعريف أيضا أنه حدد وظيفة التربية بالنسبة للفرد فهى تعمل على اكساب الطفل المهارات المختلفة التى تمكنه من التكيف مع الجماعة .

فلسفة التربية :

الطبيعة الإنسانية : تشكل قضية الطبيعة الإنسانية أهمية خاصة فى مجال الفلسفات التربوية بإعتبار أن الطبيعة الإنسانية هى محور كل الدراسات التربوية المختلفة وغايتها .

والطهطاوى عرف الإنسان بأنه الحيوان الناطق الذى يتميز عن الحيوانات الأخرى بالحواس الباطنة ويشرف هيكله ويتناسب أعضائه وأوضح أن أهم ما ميز به الله الإنسان هو العقل الذى هو آلة الفكر وأداة النظر فالعقل يربط الأسباب بالمسببات ويميز الحسن من القبيح ، وتحدث عن العلاقة بين العقل والوجدان ، وعن الوجدان يتولد الرضا

(١) رفاة الطهطاوى ، المرشد الأمين ، ص ٥ .

والغضب واللذة والألم والفرح والترح ، وإذا كان الله تعالى قد ميز الإنسان بالعقل فقد ميزه أيضا بقوة الإرادة وعرفها بأنها الميل النفسى للفعل والترك .

ومن ذلك خلص إلى أن الإنسان يتكون من : الجسم - العقل - الوجدان .

وهو يذكر أن الإنسان اجتماعى بطبعه يقول : « وإذا أمعنا النظر .. فى تنظيم بنية الإنسان وتركيبه القويم ... وتأملنا أوصافه الجسمية وفوائده العقلية - تبين لنا أنه مخلوق من أصل فطرته بعقله وحسه لأن يعيش بالتأنس والاجتماع مع أبناء جنسه ، وأن قوته البشرية تميل إلى الإحتياج إلى غيره ، وأنه إذا لم يجتمع بالتأنس والاجتماع مع أمثاله كان أضعف من الحيوان^(١) .

وبهذا البيان حدد الطهطاوى مجالات التربية ، وأوضح ميادينها التى تهدف فى النهاية إلى إعداد المواطن الصالح بتربية جوانبه المختلفة : الجسم والعقل والوجدان .

الأهداف التربوية العامة :

لمس الطهطاوى هذه الأهداف لا بشكل علمى دقيق قائم على دراسة أوضاع المجتمع وفلسفته ، وإنما تناوها من خلال هدف عام مؤداه أن التربية هى التى تخلق المواطن المخلص فى حب الوطن الذى يفديه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ويفديه بروحه ، إذ يجب أن تكون نية أبناء الوطن متجهة دائما إلى الفضيلة والشرف فلا يرتكبون شيئا يخل بمحقوق أوطانهم^(٢) .

وقد أيد ما ذهب إليه ببعض الأدلة التاريخية التى وقف عليها من خلال قراءاته ، فيمتشهد بالرومان ويذكر أنهم كانوا يجبرون من بلغ العشرين عاما أن يقسم على الدفاع عن وطنه وحكومته .

ويوضح الطهطاوى أن هذا الهدف يجب أن يكون هدفا للجميع ذكورا وإناثا ، لقد كتب يقول : « وحسن تربية الآحاد ذكورا وإناثا وإنتشار ذلك فيهم يترتب عليه حسن

(١) المرجع السابق (ضمن الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة) بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط

١ ، ١٩٧٣ م ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

تربية الهيئة المجتمعة يعنى الأمة بتمامها ، فالأمة التى حسنت تربيتها هى الأمة السعيدة التى لا تخشى أبنائها على أسرارها^(١) .

أنواع التربية :

ويتحدث عن أنواع التربية ويذكر أنها ثلاثة أنواع :

١ - تربية النوع البشرى : ويعنى بها تربية الإنسان من حيث هو إنسان يعنى تنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية .

٢ - تربية أفراد الإنسان : يعنى تربية الأمم والملل .

٣ - التربية العمومية .

ويرى الطهطاوى أن النوع الثانى لا يتأتى إلا بأحكام الدين الواجب معرفتها على كل إنسان ، ومصدر هذه التربية هو الكتاب والسنة وبصائر العقول وعدم الخضوع للعادة والعرف المألوف إذا كان يتعارض مع الدين ، وهذا ضرورى لتحقيق المهدف العام للتربية وهو خلق المواطن الصالح .

والملاحظ أنه ينوه هنا بأهمية التربية الدينية وبرائها تربية للأمة فهو لا يبهره بريق الغرب بما أحرزه من تقدم ورقى بل يرى أن أساس الرقى إنما هو فى اللجوء للدين والتمسك به ، فالقرآن الكريم « جامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول مع ما إشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها فى نظم أحوال الخلق كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان والعقول والأنساب والأموال وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحل به الغرض كالبيع والاجارة والزواج وأصول أحكامها ، فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى^(٢) .

ويقصد بالنوع الثالث من أنواع التربية التعليمات العمومية التى يتعلمها الذكور والإناث فى المكاتب والمدارس وفى سائر مجامع المعارف التى يجتمع للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين .

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦١ .

نظام التعليم : النظام التعليمى والمجتمع :

ذكر الطهطاوى أن النظام التعليمى يتأثر بطبيعة المجتمع الذى يكون فيه هذا النظام ، فإذا كانت البلد عسكرية فإن التعليم يميل لهذا الجانب « وإذا كانت المملكة زراعية أو تجارية أو بحرية وما أشبه ذلك - كان مدار التربية الصحيحة للأولاد مبينا على ذلك ، وفى هذه الخصوصيات جميعها الإستعدادية تلاحظ المعارف العمومية التى يشترك فيها جميع الأمم والملل .

مراحل التعليم :

تناول أيضا مراحل التعليم وحددها بثلاث مراحل : التعليم الأولى الابتدائى ، والتعليم الثانوى التجهيزى ، ومرحلة تعليم كامل إنتهائى .

وذكر أن التعليم الأولى عام لكل الناس غنيهم وفقيرهم ، ذكورهم وإناثهم ، وهو عبارة عن تعلم القراءة والكتابة فى ظل تعليم القرآن الشريف وأصول الحساب والنحو ، ويوضح أهمية هذا النوع من التعليم للمجتمع فهو الذى يحسن حال « الهيئة الاجتماعية » ويرفع من مستوى أرباب الكارات والحرف الصناعية فإن الصانع مثلا إذا تعلم ذلك سهل عليه بقراءة كتب صنعته أن يشتغل أشغالا جيدة بالمراجعة^(١)

وكان الطهطاوى أول من نادى بضرورة هذا التعليم ويرى أنه كالخبز والماء للإنسان^(٢) .

ويقف الطهطاوى وقفة قصيرة عند طريقة التدريس فى هذه المرحلة فيرى أنه يجب أن يسلك المعلم أقرب الطرق وأيسرها للتعلم ، وكذلك الأستاذ الماهر فى الصنائع والحرف يجب أن يسلك طريق السهولة مراعاة لأولاد الفقراء والمتوسطين لأن وقتهم محسوب على آبائهم الذين هم فى الغالب فقراء .

أما التعليم الثانوى فيذكر عنه أن الأهالى لا يهتمون به ، وأنه يجب على الحكومة أن ترغب الأهالى وتشوقهم فى هذا النوع ، فبه يكون ترقى الأمة فى الحضارة والعمران ويذكر أن أنواعه كثيرة فهو يشمل العلوم الرياضية بأنواعها ، والجغرافية ، والتاريخ ،

(١) المرجع السابق : ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

والمنطق ، وعلم المواليد الثلاثة ، والطبيعة والكيمياء ، والإدارة الملكية ، وفنون الزراعة ، والإنشاء ، والمحاضرات ، وبعض الألسنة الأجنبية التى يعود نفعها للوطن أما درجة العلوم العالية فهى إشتغال الإنسان بعلم مخصوص يتجر فيه بعد تحصيله علوم المبادئ والتجهيزات كعلم الفقيه والطبيب والجغرافى .

وهنا يتناول نقطة فى غاية الأهمية وهى ضرورة التضييق فى هذا النوع من التعليم والاقتصار فيه على إناس قلائل ، « بمعنى أن كل من طلب الإشتغال بالعلوم العالية لابد أن يكون صاحب ثروة أو يسار ، ويكون يساره مقيدا بقيود خاصة فى الغنى والإعتبار بحيث لا يضر تفرغه بالمملكة ، فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها وينتبع فيه الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل دائرة معالى المعارف^(١) .

وأهمية هذه الملاحظة لنا أننا نعيشها الآن فقد أصبح التعليم العالى مجانا ومتاحا للجميع ، ومع إزدياد السكان الرهيب أصبحنا نعانى تكديسا فى الأعداد وقلة الإمكانيات وفائضا فى الخريجين مما أدى إلى عدم وضع كل فى مكانه المناسب ، هذا بالإضافة إلى نقص الخبرة وعدم الإعداد السليم ، أما المدارس المهنية أو التعليم الفنى فقد إنصرف عنه الطلاب لنظرة الإستهانة التى ينظر بها إلى خريجى هذا النوع من التعليم .

ولعل الطهطاوى بثاقب فكره قد استطاع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث فى ظروف مماثلة لظروف عصره .

حسن التغذية :

ومن الأشياء الطريفة التى لفت الطهطاوى النظر إليها حسن التغذية ، فقد عقد فصلا لذلك بعنوان « ينبغى لطالب العلم المشتغل به أن يصفى ذهنه بأكل طيبات الرزق » ، ويستشهد بذلك أن مالك بن أنس رضى الله عنهما - كان يأكل فى كل يوم لحما بدرهمين .

وما ننادى به اليوم من الوجبة الغذائية للتلاميذ قد سبق إليه الطهطاوى منذ القرن الماضى ، ولا يخفى على أحد ما لهذا الأمر من أهمية فى رفع مستوى العملية التعليمية وبخاصة بين تلاميذ المرحلة الابتدائية .

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

تأنيث التعليم :

يتحدث الطهطاوى كذلك عن تأنيث التعليم فى المرحلة الأولى فيقول : « ففى أوائل حداثة الأولاد ذكورا أو إناثا ينبغى إتاحة تربيتهم بالنساء »^(١) .

وهذا ما تنادى به الآن بعض الإتجاهات التربوية الحديثة التى ترى فى المدرسة إمتدادا للمنزل فى المرحلة التعليمية الأولى .

الميل والإستعدادات :

لا نستطيع أن نقول أن آراءه فى هذا الميدان هى آراء علمية دقيقة بمقاييس علم النفس التربوى ونظرياته ، وإنما هى ملاحظات لا تخلو من صدق وصواب ، وتشمل هذه الآراء الآتى :

التربية والذكاء :

وعن التربية والذكاء يذكر أن التربية لا تخلق الذكاء لأنه غريزى وإنما هى تنمى وتحسن الإدراك ، ومع ذلك فالتربية الحسنة فى حد ذاتها خير من الذكاء المتوسط والذكاء الكامل إذا صحبته التربية كان عظيم النجاح^(٢) .

فليس الناس - إذا - متساوين فى الذكاء أو كما قال « ديكارت » العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس » ، بل هم يتفاوتون فيه ويختلفون ، لأنه وراثى ، ودور التربية أنها تصقله وتنميه وتعمل على توجيهه توجيها سليما .

أثر التنافس :

ويتحدث عن أثر التنافس فى التحصيل ، فيذكر أن التنافس صفة نفسانية تبعث طالب العلم على أن يجتهد كل الإجتهد ليفوق الأقران ، أو يساويهم وأن يستقرى ويبحث عما يفعلونه من الحسن الطيب ليشارك الأقران فيه ويرع فيه بجودة فهمه ودقة نظره ويعتبره من أكمل الفضائل فى المجتمع .

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥ .

الإستعداد ومبدأ الثواب والعقاب :

يرى الطهطاوى أنه من الواجب أن تقوم العملية التعليمية على ميول التلاميذ وأن تتفق مع إستعدادهم فنصح المعلم بأن يعلم التلاميذ ما تقبله طباعهم إذ ليس كل أحد يصلح لتعليم العلوم جميعا ، ويرفض أن يكون العقاب وسيلة للتعليم ويقول أما ما يفعله معلمو القرآن الشريف وشدة تعنيفهم وضربهم للأولاد الصغار المبتدئين فى التعليم فهو خروج عن حد الشرع ، ويرتب على ذلك أن الأولاد يمتنعون عن الكتابة والقراءة لما يرونه من ذلك خصوصا وأنهم مفارقون اللعب إلى الحبس الضيق ، ويرى أن مبدأ الثواب يجب أن يعمم فيقول :

ان رمت أن تشوق الأولادا وأن ترى من نجلك إجهادا
فعه بالانحاف يوم العيد وقدم الوعد غلى الوعيد

العلاقة بين المعلم والمتعلم :

تحدث الطهطاوى عن العلاقة بين المعلم والمتعلم ، فذكر أنها يجب أن تقوم على إحترام الطالب لأستاذه والنظر إليه نظرة الابن لوالده وحسن الإفادة منه ، أما المعلم فيجب أن يكون متواضعا لا يغتر بما حصل من معرفة وأن يكون عطوفا على تلاميذه محبا لهم وأن يختار من العبارات التى يؤدى بها المعنى ما هو واضح مفصل .

فى طريقة التدريس والمنهج :

تحدث الطهطاوى عن طريقة التدريس مع الأطفال مقررًا لما شاهده فى فرنسا كما تحدث عن المنهج ورأى أنه يجب أن يجمع بين العلم والفن .

طريقة التدريس :

« طريقة أهل باريس فى تعليم أطفالهم القراءة والكتابة أنهم يتدثون بتعليم الإنسان القراءة فى كتب الحروف لترسم صورها فى ذهنه ، وفى هذه الكتب الهجائية بتركيبها ، ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال فهذه الطريقة يتعلم الإنسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمات وينطق بها كما ينبغى حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة ثم بعدها تلقى فى هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل تناسب الصغار ثم يتدرجون إلى

أوصاف الحيوانات المعروفة وخاصة التي يتعلق الأطفال باللعب بها ، ثم يتعلمون كيفية السلوك وطاعة الوالدين ، ثم يتعلمون نبذاً في الحساب ، حتى إذا ما إنتهوا من ذلك بدأوا في قراءة كتاب أهم منه^(١) .

الجمع بين العلم والفن :

ويتحدث عن ضرورة الجمع بين الفنون الأدبية والعلوم البحتة ، ويرى أن كلا منهما يكمل الآخر ، ويؤيد ذلك بأن اليونان لم تترك هذه الحضارة العظيمة إلا بفضل الجمع بينهما « فالعلوم الأدبية تكسو العلوم الحقيقية طلاوة جليلة » .

ولعلنا نجد صدق ذلك فيما ينادى به بعض المسئولين من رجال التربية اليوم من ضرورة تزويد الطالب بقدر من العلوم الأدبية إذا كانت دراسته علمية أو تزويده بقدر من العلوم العلمية إذا كانت دراسته أدبية .

تربية البنت :

للمرأة الدور البارز في إنهاء المجتمع وتطويره ، ودورها لا يقف عند حد الأسرة وصنع الأجيال ، بل يتجاوزه إلى حيث الحياة العامة فهي تعمل وتكافح وتقف إلى جانب الرجل تخفف عنه أعباء الكسب وتكاليف العيش هذا ما شاهده ورآه في بعثته في فرنسا .

وبمقارنة ما رآه بما هو موجود في مصر خاصة والشرق عامة - يتضح مدى الفجوة الشاسعة بين المرأة الغربية والمرأة الشرقية ، فالثانية حييسة الجهل والقمع والسطوة وأسيرة النزعات والنزوات .

وإذا كان المجتمع يسعى للتقدم ويتطلع للنهوض فإن عليه أن يعنى بتربية المرأة ، وقد كان الطهطاوى - فيما يعرف - أول من دعا لتربية المرأة وإعدادها إعداداً يتفق والدور الذى تقوم به .

وقد تناول الطهطاوى في هذا الجانب الأمور التالية :

أهمية المرأة - طبيعة المرأة - عقل المرأة - وأخيراً تعليم المرأة .

(١) رفاة الطهطاوى ، تخلص الابريز ، ص ٣١٦ .

أهمية المرأة :

يقول الطهطاوى فى أهمية المرأة « خلق الله المرأة للرجل ليبلغ كل منهما الآخر أمله ويقتسم معه العمل ، وجعل المرأة تلتطف لزوجها أتراحه وتضاعف أفراحه وتحسن أمر معاشه ، وتنشط حركة إنتعاشه ، فهى أجمل صنع الله القدير ، وقرينة الرجل فى الخلقة والمعينة على أول حركات التدبير ، والحافظة لأطفاله ، والقائمة بأمر عياله » .

ولا ينظر الطهطاوى للمرأة نظرة التشكك فى آدميتها أو المنتقص من إنسانيتها فهى معه فى الخلقة على حد سواء ، وهيكليهما مستو فى الترتيب والتنظيم وتناسب الحركات والأعضاء .

وإذا كان هناك من تباين فى الصفات فمرد ذلك إلى طبيعة الدور الذى يقوم به كل منهما ، فالمرأة تستكمل درجة النمو فى زمن أقل مما ينمو فيه الرجل وفى سن العشرين تحرز المرأة كل مقومات الأنوثة ، وهى تبقى مدة طويلة على جمالها ولطافة شكلها غير أن مجموع عضلاتها قليل الإنبساط والتمدد ، ولهذا لم تكن مستعدة لأن تشترك مع الرجل فى الأشغال الشاقة كالحرث والحرب والركض والرخب . ومن حيث قوة أعصابها فهى دقيقة الإحساس سريعة الإنفعال ولا تطول مدة الإحساس عندها ، ولا تمكث كإحساس الرجل ، لأن تواتر المحسوسات على الحواس القوية التأثير يمحو بعضها بعضها^(١) .

طبيعة المرأة :

ويلخص الطهطاوى رأيه فى طبيعة المرأة وما يعترى هذه الطبيعة من تغيير وتبدل فيقول : « وبالجملة فبنية النساء على هذا النظام توجب كونهن ألطف من الرجال طبعاً وأرق حاشية ، وإنما يعتريهن التغيير والتبدل من أمور أجنبية ، تطراً عليهن من مزاج القطر ، ومن التربية ، ومن أحوال المعيشة ومن التروضات والإعتادات^(٢) .

والملاحظ هنا أنه يشير لأثر البيئة فى تكوين الشخصية وكذلك أثر التربية .

(١) المرشد الأمين ، ص ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

رأيه فى عقل المرأة :

وهو لا يقلل من عقل المرأة ، أو يهون منه بل يقول : « وما يوجد فى الأنثى قوة الصفات العقلية وحدة الإحساس والإدراك على وجه قوى قويم ... فعقل النساء الغريزى وسهولة إدراكهن مما يلطف الجمعيات الإنشائية وعقولهن القوية ، فإذا كانت الأنثى مع عقلها الغريزى ذات معارف كافية وظرائف شافية زادها عقلها كمالا على ما تعرفه وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الإشارات ووفائق الكنايات ورقائق التوجيهات والتلميحات ، وتؤول المعنى الذى تسمعه بأحسن التأويلات .

والطهطاوى يدرك أن الوظيفة الأولى للمرأة هى الأسرة فيتحدث عن الزواج حديثا مفصلا يشمل الجمال والحسن كما يشمل البكارة والثبوبة ، ويتناول لون المرأة وإستحباب الزينة والطيب للنساء ، وما يجب أن يقوم بين الزوجين من علاقات المحبة والصدقة والعفة والأمانة .

ويرى أن أداء هذه الوظيفة على الوجه الصحيح إنما يكون بحسن تربية المرأة وترسيخ صفة الحياء فيها .

ولسنا ندرى إلى أى مدى كان الطهطاوى محقا فى قوله : « إن فى النساء مثلبتين من أصل الخلقة وهما الضعف والجبن ويجب فى تربيتهن حال الصغر تمكين هاتين المثلبتين اللتين هما فى الحقيقة فضيلتان ، فإن النساء إنما فقدن كمال الحرية وكدن أن يكن تحت الحجر ليدوم فيهن الحلم والإنكسار والخضوع »^(١) .

تعليم المرأة :

« والطهطاوى » فى حديثه عن تعليم البنت يرفض الأقوال المألوفة والشائعة من أن المرأة ماكرة بطبعها ولا يعتمد على رأيها لنقص عقلها ، وتعليم القراءة والكتابة ربما حملها على الوسائل غير المرضية مثل كتابة رسالة إلى زيد ، ورقة إلى عمرو ، وبيت شعر إلى خالد ونحو ذلك ، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقها كالرجل فى جودة العقل وصواب الرأى ، وحب الفضائل لفعل ، فكأن الله تعالى خلقها لحفظ متاع البيت ، ووعاء لصون مادة النسل ، فمثل هذه الأقوال لا تفيد »^(٢) .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

يرفض الطهطاوى مثل هذه الأقوال ويدعو إلى أن تتعلم البنت القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيد أديا وعقلا ويجعلها بالمعارف أهلا ، ويصلح به المشاركة للرجال فى الكلام والرأى فتعظم فى قلوبهم ويعظم مقامها لزوال ما فيها من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها .

ولا يرى أى إبتذال للمرأة بسبب تعلمها ، ولم يعهد أن عددا من النساء ابتذلن بسبب آدابهن ومعارفهن ، ومن ذهب إلى ذلك فهو مدفوع بدافع الغيرة الشديدة عليهن هذه الغيرة التى لا تليق إلا بالمجتمع الجاهل ويضع الطهطاوى فرضا يوضح به ضرورة تعليم البنت فيذكر أنه لو فرضنا أن إنسانا أخذ بنتا صغيرة السن مميزة وعلمها القراءة والكتابة والحساب وبعض ما يليق بالبنات أن يتعلمنه من الصنائع كالخياطة والتطريز إلى أن تبلغ خمس عشرة سنة ثم زوجها لإنسان حسن الأخلاق ، كامل التربية مثلها فلا يصح أنها لا تحسن العشرة معه ، أو لا تكون له أمانة ، ومثل ذلك سائر البنات ، فإن تعليمهن فى نفس الأمر عبارة عن تنوير عقولهن بمصباح المعارف المرشد لهن ، فلا شك أن حصل النساء على ملكة القراءة والكتابة وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة والإطلاع على المعارف المفيدة هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المترين من الجمال ، فالأدب للمرأة يغنى عن الأدب^(١) .

أهداف تعليم المرأة :

ولا يفوت الطهطاوى أن ينوه بأهمية التربية للمرأة كأم « فآداب المرأة ومعارفها تؤثر تأثيرا كبيرا فى أخلاق أولادها ، إذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت ، والإشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها بخلاف ما إذا كانت ترى أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج وإضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات الغير لازمة حيث تتصور البنت من الصغر أن جميع النساء كذلك ، فتألف ذلك من صغرها .

ويدعم الطهطاوى دعوته إلى تعليم البنت بأمثلة من الحضارة الأوربية والتاريخ الإسلامى فيقول : « وقد إجتهد الأورباويون الذين بلادهم الآن هى أقوى البلاد فى أن يربوا بناتهم كترية الأولاد ، وكانت عادة الفرنساوية قديما أن يربوا بناتهم فى أديار الراهبات ويمكن

فيها إلى حد تأهيلهن للزواج ، وكثير من هؤلاء البنات كن يلبسن زى الراهبات إلى أن يخرجن من هذه المكاتب بوصف كونهن عرائس .

وفي بعض بلاد جرمانيا دخول المدارس للبنات والغلمان واجب قانونا ، وحتى عد أن في بورسيا سدس الأهالي يتعلمون في المكاتب ويقرب من هذا تعليم جمهورية السوسة (سويسرا) ومملكة بلجيكا والفلمنك وممالك أمريكة المتحدة ، فلهذا كان أبناء أوروبا وأمريكة ذكورا وإناثا يحسنون في الغالب القراءة والكتابة بالضبط الشافي ويعرفون مبادئ المعارف التي يتزين بها عقل الإنسان ، وهذا يشترك فيه عموم الأهالي^(١) .

ومن التاريخ الإسلامي فقد ورد في كتب الأحاديث روايات عن النساء كثيرة ، وقد كان في زمان رسول الله ﷺ ، من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء ، كالشفاء أم سليمان ، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال لها : علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب أي الخط والمجاء^(٢) .

فالتعليم - إذا - يهدف إلى إعداد الزوجة الناجحة كما يهدف إلى إعداد الأم الفاضلة .

على أن التعليم أيضا يهدف إلى العمل ، والطهطاوى لا يعارض في أن تتعلم المرأة من أجل العمل متى اقتضى الحال ذلك ، فهو يقول : « ويمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء ، وأفعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء ، فإن المرأة التي لا عمل لها تقضى الزمن خائضة في حديث جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وهكذا^(٣) .

والملاحظ هنا أن الطهطاوى قد حدد عمل المرأة بأمرين :

(١) المرشد الأمين ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

١ - اقتضاء الحال .

٢ - تناسب العمل الذى تقوم به مع جهدها وإمكاناتها .

وبعد : فإن الطهطاوى ليعد بحق رائدا لحركة التنوير الفكرى ، تلك الحركة التى إلتقت فيها العقلية الشرقية بكل ما فيها من رواسب بالعقلية الغربية بكل ما فيها من تطور ، ولم يكن لهذا التفاعل ليناقض الجوهر الإسلامى الأصيل وإنما كان تفاعلا حيا يؤكد أصالة هذا الجوهر وقدرته على احتواء متغيرات العصر وبعثه فى شكل يلائم تطور العصر ورقى المدنية .

وقد عنى الطهطاوى - كما سبق أن عرضنا - بأمرين كان يرى فيهما سر التطور والرقى ، هذان الأمران هما : نظم الحكم ، والأحوال الاجتماعية وفى مقدمتها حال المرأة .

ولقد اضطهد الطهطاوى لأنه قرر حق الشعب فى إدارة حكم بلاده ، مستدلا بنصوص واضحة من الدين الحنيف وأمثلة رائعة من التطبيق الإسلامى التاريخى ، ومستدلا أيضا لما رأى فى فرنسا وشاهد .

لقد كان الطهطاوى أول صوت فيما نعرف نادى فى مصر الحديثة بوجوب تعليم البنات ، ورفض تلك الحجج الواهية التى ارتكن إليها الواهمون من أن المرأة إن تعلمت فإنها تتقن كتابة خطابات الغرام . لقد دافع الطهطاوى عن وجوب تعليمها كل علم ممكن ، فمن يدرى ؟ ربما مات عائلها فاضطرت للعمل فلا بد أن تسلح لكل احتمال ، لكنه إعترف بقيدها وحيد حجابها ، ونظر إليها على أنها مخلوق مكمل لوجود الرجل ، وإن كانت لها رسالة فهى رسالة تربية النشء الجديد ولا يمكن لها أن تنهض بهذه الرسالة إلا بعد تعليمها وتربيتها .

لقد تحمس الطهطاوى بالقدر الذى يسمح به زمانه للإصلاح الاجتماعى ولتعليم المرأة ، ولقد كان موضوع المرأة يشغله كثيرا وإتضح هذا من تلك الموازنات العديدة بين نساء مصر ونساء فرنسا فى التصرف والعادات ، ومن الحديث الطائل الذى خصها به فى كتابه المرشد الأمين .

وكان يمكن لدعوة الطهطاوى أن تثمر سريعا لولا أن كان الإستبداد ذلك الذى أصاب الحياة بالشلل فى كل أنحائها ومنها دعوة الطهطاوى فى الإصلاح السياسى

والاجتماعى ، وكان على المرأة أن تتوارى خلف الضباب مرة أخرى حتى يحين الوقت الذى يتبدد فيه هذا الضباب لتطل دعوة إصلاح حال المرأة برأسها من جديد ولتجد من يتحمس لها ويقف عليها جهده .

إذا كان الطهطاوى قد قدر له أن يكون هذا المصلح فذاك لأنه كان يمثل التيار المصرى الصميم والتعليم الأزهرى العربى خير تمثيل ، فامتزجت فى نفسه وفكره ثقافة عربية عميقة أصيلة بثقافة فرنسية عصرية راقية بعيدا عن التيارات السياسية والمطامع الإمبراطورية سواء من خلفاء نابليون أم من محمد على وخلفائه .